الموحّدون العابدون القاصدون
(أمّ القرى) من كلّ الأمصار

محسن ا الأسدي.[1]

ملخّص البحث :

هناك حكمٌ كثيرة، والله عزَّ وجلَّ أعلم بها وبمراده؛ فهو: ﴿لاَ يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾، وهنالك مقاصد وأهداف هي الأخرى كثيرة ..؛ وهناك نِعمٌ وفيرة؛ إن في الحياة الدنيا وإن في الآخرة، يحظى بها الوافدون لهذا البيت المبارك؛ من حجّاج ومعتمرين..، اقتضت وجود البيت الحرام؛ الكعبة ومعالم قريبة منها، فيما أُخرى تبعد قليلاً عنها؛ وما يحفُّ بها من آثار، وما نهض في أحضانها من إبداعات روحيّة وأخلاقية واجتماعية..؛ لتشكّل مشروعاً ربّانيًّا، إبراهيميًّا يوم كُلِّف بتفعيله خليلُ الله إبراهيم عليه السلام وبرفقته ذريّةٌ طيبة؛ ابنُه إسماعيل وأُمُّه هاجر عليهما السلام، ثلاثيٌّ مباركٌ فاعلٌ في بناء ذلك المشروع المبارك؛ ليلتحق بهم الصالحون؛ أولئك الذين أعدَّ لأجلهم ذلك البيت إنشاءً وتطهيراً، وهو الذي

١. محقق و باحث ديني .

نسبه الله تعالى إليه تشريفاً وتكريماً له، وعلوًّا لمنزلته: ﴿...وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾.[1]

وكذا الآية ٢٦ الحجّ: ﴿... وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾.

وتقديراً لهؤلاء الموحدين العابدين في جميع الأعصار، القاصدين (أُمَّ الْقُرَى) من كلّ الأمصار، وهم يشكّلون تلك الأفئدة في دعاء إبراهيم عليه السلام: ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾. **حيث يجدون فيه الأمن والطمأنينة وعطاءً غير مجذوذ... تعالوا نعيش معاً في رحاب ذلك، نتلمس ما فيه من نعم روحيّة وأخلاقيّة واجتماعيّة، ومعرفيّة عن المسجد الحرام ومعالمه ورموزه ..؛ نطلُّ عليها عبر قراءة ما تيسّر من آيات قرآنيّة وأحاديث وروايات وخطب للإمام عليٍّ عليه السلام، وأقوال أُخر ...**

***

نِعَمٌ مباركةٌ !

في قراءة لرحلة الحجِّ القرآنيّة ومعالمه؛ مع إطلالة على نِعمٍ يشهدونها في البيت الحرام وزيارته المباركة حجًّا واعتماراً... تجتمع هذه النعم المباركة في قوله تعالى: ﴿لِيَشْهَدُواْ مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ﴾.[2]

وتتوزع بين ما هو دنيوي، وما هو أخروي.

قال الزمخشري: ونكر المنافع؛ لأنّه أراد منافع مختصة بهذه العبادة دينية ودنياوية لا توجد في غيرها من العبادات.

قال سيد قطب: والمنافع التي يشهدها الحجيج كثير، فالحج موسم ومؤتمر، الحج

١. سورة البقرة: ١٢٥ .

٢. سورة الحج: ٢٨ .

موسم تجارة وموسم عبادة، والحج مؤتمر اجتماع وتعارف، ومؤتمر تنسيق وتعاون. وهو الفريضة التي تلتقي فيها الدنيا والآخرة كما تلتقي فيها ذكريات العقيدة البعيدة والقريبة..

أصحاب السلع والتجارة يجدون في موسم الحج سوقاً رائجة، حيث تجبى إلى البلد الحرام ثمرات كلّ شيء من أطراف الأرض؛ ويقدم الحجيج من كلّ فجّ ومن كلّ قطر، ومعهم من خيرات بلادهم ما تفرق في أرجاء الأرض في شتى المواسم... يتجمع كلّه في البلد الحرام في موسم واحد. فهو موسم تجارة ومعرض نتاج؛ وسوق عالمية تقام في كلّ عام وهو موسم عبادة تصفو فيه الأرواح، وهي تستشعر قربها من الله في بيته الحرام...[1]

نقف عند تلك النعم التي تنطلق من هناك، من تلك الصحراء القاحلة، ومن ذلك الوادي المجدب، ذي الشمس الحارقة، ومن بقعة مقفرة معلومة من الأرض، من بين رمال وصخور، لا ماء فيها ولا كلأ... موحشة؛ خلاء من الناس، مهجورة لا من أحد يسمع، أو ناظر ينظر، إلّا عابر سبيل، وإلّا قبائل تحيطها من بعيد، بقعة تعجُّ بمخاطر كثيرة، فلا حياة مستقرة فيها، فضلاً عن أن تكون آمنة متحضّرة... ولحكمة اقتضتها السماء يأتي أمر ربّك أنَّ هاهنا مكان بيته؛ بيت الله الحرام، فإذا ﴿بالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ الذي وضع بأمر ربِّه، وأخفته مشيئته، أو أُخفي لأسباب طبيعية مؤثرة، ولعلَّ هذا كان قبل الخليقة، لا في زمن نبيِّ الله آدمعليه السلام، وإن ذكر أنهعليه السلام أمرته السماء بإنشائه؛ وقد حجّه هو ومن معه من متعلقيه. قد حدّدت السماء مكانه لنبيِّ الله إبراهيمعليه السلام؛ لإقامته بناءً مرتفعاً؛ مخفيًّا تحت الأرض، تحت رمالها وترابها وأحجارها، لا أدري فلعلَّ إخفاءه هذا كان ولحكمة ربانيّة، كرّمت السماءُ بإظهاره خليلَ الله إبراهيمعليه السلام؛ حين حلَّ وقتُ تفعليه؛ ليكون ﴿البَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ كعبةً ظاهرةً، علامةً بارزةً تُدِلُّ الناسَ على أنَّ ها هنا

١. الكشاف، للزمخشري ؛ في ظلال القرآن، للسيد قطب: الآية .

تجلَّت حكمته تعالى قيماً إيمانيّةً واضحةً، ومبادئَ روحيّةً عاليةً، وبيت عبادة وتوسّل وتوبة وإنابة ومغفرة... منارةً لفريضة الحجّ ولغيرها، في مشروع إبراهيميٍّ توحيديٍّ فريد؛ شكّل أسس الديانات التوحيديّة الرئيسية القادمة بعده، أي التي بُعثت بعد خليل الله إبراهيم عليه السلام؛ اليهوديّة والمسيحيّة، والإسلاميّة؛ هذه الدعوة الإيمانية الخاتمة التي أشرقت وانطلقت من هذه الديار؛ لتُغيّر وجه التاريخ...

لقد انبثق العتيق من جديد؛ بعد أن رفع إبرهيم وإسماعيل عليهما السلام قواعده؛ وبعد أن انطلق دعاؤه وأذانه المبارك يملآن أجواء هذه البقعة؛ ما بين السماء والأرض، في ذلك الوادي؛ في مكة المكرمة؛ فأيقظا فيها مقومات الحياة بمفاصلها.

وبالذات الروحيّة؛ وليجعلا منها ذات زرع ونماءٍ؛ بلدةً طيبةً، تنعم بالخير والعطاء، وتفيض بنعـ مباركة... لقد كان كلُّ هذا بلا شك على يدي نبيِّ الله إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام دون أن يترك الدور الكبير في المشروع الإبراهيمي المذكور لسيدتنا هاجر؛ بامتثالها وصبرها وجهدها ومعاناتها... وكانت الآية ١٥٨ البقرة: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾، حاكية عن مشروع السعي بين الصفا والمروة كواجب من الحجّ فريضةً واستحباباً ومن العمرة؛ وقد أوجز ابنُ عباس جهدها وصبرها بكلمة رائعة: هذا ما أورثتكم أُمُّكم أُمَّ إسماعيل! حين رأى قوماً يطوفون بين الصفا والمروة.

بمعنى أنَّ أصل ذلك مأخوذ من طواف هاجر وسعيها وترددها بين الصفا والمروة في طلب الماء لولدها؛ لمّا نفد ماؤهما وزادهما، أو حين تركهما إبراهيم عليه السلام هناك في وادٍ لا ماء فيه...، وليس عندهما أحد من الناس، فلما خافت على ولدها الضيعة هناك، وانتهى ما عندهما من مؤونة، قامت تطلب الغوث من الله عزَّ وجلَّ، فلم تزل تتنقل في هذه البقعة المشرفة بين الصفا والمروة، متذللة خائفة وجلة مضطرة فقيرة

إلى الله عزَّ وجلَّ، حتى كشف الله كربتها، وآنس غربتها، وفرّج شدتها، وأنبع لها زمزم التي ماؤها: «طعام طعم، وشفاء سقم...». فالساعي بينهما ينبغي له أن يستحضر فقره وذلَّه وحاجته إلى الله سبحانه، في هداية قلبه وصلاح حاله وغفران ذنبه، وأن يلتجىء إلى الله عزَّ وجلَّ؛ لتفريج ما هو به من النقائص والعيوب، وأن يهديه إلى الصراط المستقيم، وأن يثبته عليه إلى مماته، وأن يحوله من حاله الذي هو عليه من الذنوب والمعاصي، إلى حال الكمال والغفران والسداد والاستقامة كما فعل بهاجر عليها السلام.[1]

حينما لم يغيّرا أبعاد البيت طولاً وعرضاً؛ أي مساحة، بل فقط رفعا قواعده بعد أن أزال عنها ما يُخفيها من رمال وأحجار...، وهو ما أخبر عنه التنزيل العزيز في سورة البقرة: ١٢٧ ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

وقد كانت موجودة قبلهما، وأتمّا بناءها وتسقيفها، وكأنّ رفع تلك القواعد بداية تفعيل هذا الوجود التوحيدي والكيان المبارك؛ كأوّل مركز للتوحيد، وأقدم بل وأفضل بيت عبادة خالصة طاهر بعيد عن الشرك بُني على وجه الأرض؛ ليكون ذلك: ﴿الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾، ﴿مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾، ﴿قِيَاماً لِّلنَّاسِ﴾، ﴿مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً﴾.[2] وليكون قبلةً كما في الآية ١٤٤ في سورة البقرة:

﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾. فهو بالتالي: ﴿... أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾.[3]

---

١. انظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (ت ٧٧٤هـ)؛ تفسير الجامع لاحكام القرآن، القرطبي (ت٦٧١هـ).

٢. سورة الحج: ٣٣؛ سورة آل عمران: ٩٦؛ سورة المائدة: ٩٧؛ سورة البقرة: ١٢٥.

٣. سورة آل عمران: ٩٦.

ولأنه كذلك قديم؛ فهو أول بيت وضع للناس بناه آدم عليه السلام ثمّ جدَّده إبراهيم عليه السلام.

سمّي على قول: ﴿بالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾.[1]

وكان هذا كلّه بعد أن تحقق ما في هذه الآية: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِى إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾.[2]

ثمَّ جاءت مرحلة أن بيّن الله تعالى له معالم البيت وعرَّفه أسسه وقواعده ووطّأه له: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾. فمرحلة التطهير ﴿...أَن لاَّ تُشْرِكْ بِى شَيْئاً وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَالْقَآئِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾.[3] ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾.[4]

إذن فهو حدث تأسيسيٌّ كبير، رفعت قواعده، وبالتالي فهو وبلا أدنى ريب أول مصداق؛ أول بيت عبادة، أول مسجد أسّس بنيانه ﴿عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ﴾، لتبقى هاتان الصفتان تواكبان أي بناء أو مشروع أو مسجد يُراد منه وجه الله تعالى! ويُراد منه أن يقف راسياً راسخاً مطمئناً نافعاً، وإلّا فهو على شفا جرف هار يودي به في نار جهنم!

لقد نطقت به الآيات الكريمة أعلاه، وغيرها من الآيات، فضلاً عن الأخبار والأقوال التي نكتفي منها بما جاء ضمن أطول خطبة في نهج البلاغة للإمام عليٍّ عليه السلام، (الخطبة ١٩٢ القاصعة)، وهي خطبة تتمحور حول مجموعة من القضايا الأخلاقية

١. سورة الحجّ: ٢٩.
٢. سورة إبراهيم: ٣٧.
٣. سورة الحج: ٢٦.
٤. سورة البقرة: ١٢٥.

والتربويـة... نذكـر منهـا ما يخـصُّ مقالتنا هـذه، وهو كلمة مـا أوضحهـا وأجلَّها في قصة هذا البيـت الحـرام وأهدافه!

«... وَضَعَـهُ بأَوْعَـر بقَـاع الأَرْض حَجَـراً، وَأَقَـلِّ نَتَائِـق الدُّنْيَـا مَـدَراً، وَأَضْيَـق بُطُون الأَوْدِيَـةِ قُطْـراً بَـيْنَ جبَـال خَشِـنَةٍ وَرمَال دَمِثَـةٍ وَعُيُون وَشِـلَةٍ وَقُـرًى مُنْقَطِعَـةٍ لا يَزكُو بهَا خُـفٌّ ولا حَافِرٌ ولا ظِلْـفٌ...».

وتحقيـق الحكمـة مـن إنشـائه هـي: «... أنَّ اللهَ سُـبْحَانَهُ اخْتَـبَرَ الأَوَّلِـينَ مِـنْ لَـدُنْ آدَمَ صلـوات الله عليـه إلَى الآخِريـنَ مِـنْ هَـذَا الْعَـالَمِ...». إنّه امتحـانٌ مهمٌّ وابتـلاءٌ خطيرٌ «ببَعْـض مـا يَجْهَلُونَ أَصْلَهُ... فالإمام سـلام الله عليـه بعد أن يقول: «وكلّـما كانت البلوى والاختبـار أعظـم، كانت المثوبة والجـزاء أجزل... يردفـه قائلاً: «ألا ترون أنَّ الله سـبحانه اختـبر الأولـين من لـدن آدم... بأحجا لا تـضرّ ولا تنفع، ولا تبصر ولا تسـمع، فجعلها بيتـه الحـرام، الذي جعلـه الله للناس قيامـاً، ثم وضعه بأوعر بقـاع ا لأرض حجـراً،...».

والهـدف مـن ذلـك كان... «تَمْيِيـزاً بالاخْتِبَـا لَهُـمْ و نَفْيـاً لِلاسْـتِكْبَار عَنْهُـمْ وإبْعَـاداً لِلْخُيَـلاءِ مِنْهُـمْ»...!

وأيضاً: «جَعَلَهُ اللهُ تَعَالَى سَبَباً لِرَحْمَتِهِ، وَوُصْلَةً إلَى جَنَّتِهِ»!

ولـربّ سـائل يقـول: لماذا لم يضـع الله تعالى بيته بـأرض غير هذا الـوادي الأجرد، كأن يكـون في مكان يتمتـع بخصب وثمار، وروعـة وجمال..؟!

فلينظـر هـذا السـائل لمـا يقولـه الإمـامُ سـلام الله عليـه: «ولـو أراد سـبحانه أن يضع بيتـه الحـرام، ومشـاعره العظـام، بين جنـات وأنهار، وسـهل وقـرار، جمَّ الأشـجار، داني الثـمار، ملتـف البنى، متصل القـرى، بين برَّة سـمراء، وروضـة خضراء، وأريـاف محدقة، وعـراص مغدقـة، وريـاض نـاضرة، وطـرق عامـرة؛ لـكان قـد صغـر قـدرُ الجـزاء، على حسـب ضعـف البلاء، ولـو كان الأسـاس المحمـول عليها، والأحجـار المرفـوع بها، من زُمـردة خـضراء، وياقوتة حمـراء، ونور وضيـاء؛ لخفَّف ذلك مصارعة الشـك في الصدور،

ولوضع مجاهدة إبليس عن القلوب، ولنفي معتلج الريب من الناس، ولكن الله يختبر عباده بأنواع الشدائد، ويتعبّدهم بأنواع المجاهد، ويبتليهم بضروب المكاره، إخراجاً للتكبر من قلوبهم، وإسكاناً للتذلل في نفوسهم، وليجعل ذلك أبواباً فُتحاً إلى فضله، وأسباباً ذللاً لعفوه...»![1]

ومن العجيب والجميل أنَّ نبيِّ الله إبراهيم وكذا ابنه النبيّ إسماعيل عليهماالسلام؛ وضعتهما السماءُ تحت الابتلاء أولاً؛ ليؤسّسا فيما بعد دار الابتلاء هذا وبيت الامتحان هذا... لقد ابتلتهما قبل ابتلاء الناس ببيته الحرام، فبعد أن امتحنته السماء، وخاض غمار مواقف صعبة مع قومه وكبرائهم، ضدَّ شركهم وكفرهم، وعبادتهم للأصنام، وظلمهم وتعسفهم، وكادوا أن يُميتوه قتلاً أو حرقاً حين﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَانصُرُواْ آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ لولا إرادة السماء وكلمتها المنجية المتمثلة بـ: ﴿قُلْنَا يا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾. ﴿وَأَرَادُواْ بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ﴾.[2] ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُواْ اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.[3]

فأنجاه اللهُ تعالى، بعد أن اختبر بذلك قوَّته وعزمه وتحمله وصبره... حتى استقرّت فيه مفاهيم التوحيد والانقطاع إليه تعالى وحده وحده، فـ: ﴿...كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.[4]

ولم تكتف السماء بذلك بل اختبرته أخرى وابنه إسماعيل ببلاء آخر؛ وصفته بأنه: ﴿الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾.

---

١. انظر الخطبة: ١٩٢ مقطع الكعبة المقدّسة، وكما تسمّى بالقاصعة (من قصع فلان فلاناً أي حقّره؛ لأنّه٧ حقّر فيها حال المتكبرين)، نهج البلاغة لصبحي الصالح: ٢٩٢.

٢. سورة الأنبياء: ٦٨ـ٧٠.

٣. سورة العنكبوت: ٢٤.

٤. سورة آل عمران: ٦٧.

فوجدتهما بأصدق امتثال واستسلام لله تعالى حين صدّق الخليل الرؤيا وتبعه في ذلك ابنه النبيُّ إسماعيل ملبّياً طائعاً، فحقّقا التكليف معاً، واجتازا الاختبار معاً بقدرة وصبر وأناة، فكان الفوز حليفهما والنجاح أمنيتهما وخاتمتهما في قصة الرؤيا والذبح كما في: الآيات: ١٠٢ـ١٠٧ من سورة الصافات: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْىَ قَالَ يا بُنَىَّ إِنِّى أَرَى فِى الْمَنَامِ أَنِّى أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِى إِن شَآءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ * فلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَن يا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَآ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاَءُ الْمُبِينُ * وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾.

وأيضاً؛ وتمهيداً لتلك الوظيفة، وذلك الدور الخالد، كانت عمارة البيت الحرام، مركزاً للتوحيد الخالص وللطهارة الخالصة؛ ليتعبّد به الموحّدون بأحوالهم المذكورة في الآية: ﴿أَن لاَّ تُشْرِكْ بِى شَيْئاً وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَالْقَآئِمِينَ وَ الرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ ﴿لِيُقِيمُواْ الصَّلاَةَ﴾ ليُقيم هؤلاء الصلاة؛ ليقيموها حفظاً ورعايةً، ليُقيموها بأصولها وشروطها وآدابها وأهدافها، ليُقيموها بقلوب واعية خاشعة وأبدان خاضعة مطمئنة، وبتفعيلها في حياتهم وسيرتهم؛ ليُقيموا العبادة؛ التوحيد الخالص، فينطلق بهم في الحياة نماذج حيّةً فاعلة، أمثلةً ودعاةً صادقين لا يؤدّون الصلاة بأركانها وواجباتها فقط... بل يُقيمونها بجوهرها وأهدافها؛ فتكون دافعةً للسيرة الحسنة، ولأعمال الخير والصلاح والبناء والتطور... ومانعةً ما يُعيق ذلك، ناهيةً عن الفحشاء والمنكر، محرمةً أساليب الخيانة والنفاق والظلم التي لأجلها تحمَّل كلٌّ من هاجر ورضيعها نبيِّ الله إسماعيل جدبَ المكان ووحشته، والحرارة وشدّتها، والحرمان وآلامه، ومشقّة الظمإ، بعد أن أسكنهما نبيُّ الله إبراهيم ﴿بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ﴾، غير ذي حياة، غير ذي ماء... ولم يترك لهم إلّا دعاءَه الذي ظلَّ يلاحقهم، والأجيال القادمة بعدهم، منذ أن أحيا ذلك الوادي ببعض ذرّيته وبدعائه المبارك، فتارةً نراه يدعو لهم بالهداية، وأخرى بأن يُحببهم والبقاع التي هم فيها إلى خلقه تعالى، وأن يجعل القلوب تستميل إليهم، دون

أن يغفل في أدعيته البشارة الكبرى: ﴿رَبَّنَا وَ ابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾.[1]

أن يأتيهم من يُعلمهم ويزكي نفوسهم ويُطهرهم من السيئآت كلّها، إنه رسول‌الله صلى الله عليه وآله القائل: «أنا دعوة أبي إبراهيم...»! وأن يكون كلُّ شيء، بقعةً وبيتاً ومناسك، آمناً:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَـذَا الْبَلَدَ ءَامِناً﴾. فبتوفر الأمان تتحقق الحياة وجمالها وحسنها لهذا البلد، وسلامة ما يؤدى فيه من مناسك وأعمال، وبالتالي يكون توجّه الوافدين إليه بثقة واطمئنان، وبكلّ شوق ورغبة لعطائه تعالى وأجره وثوابه... وهكذا كانت دعوات خليل الله إبراهيم عليه السلام تتوالا منذ دعائه الأول، حين ترك بضعةً منه امتثالاً لأمر ربِّه؛ قافِلاً من حيث أتى: ﴿رَبَّنَآ إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِى إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾.[2]

ومن هنا يمكن القول: إنَّ الدعاء ظلَّ ذا مكانة عظيمة، فهناك وفي كلّ هذه المفاصل والمراحل ومواقع المناسك تجد الدعاء والمناجاة والتوجع لا تفارق الحجيج، وأعظم الأدعية هي تلك القرآنيّة التي بدأها نبيُّ الله ونبيُّ الدعاء إبراهيم الخليل عليه السلام، وهو يترك بضعةً منه في وادي مكة، يدعو بالرزق والأمان، وهو يرفع قواعد البيت، يُطهره من الأصنام، وهو يرفع الأذان، وهو... حتى شكّلت هذه الأدعية وأدعية بقية الأنبياء وأئمة أهل البيت عليهم السلام، كدعاء الإمام الحسين والإمام زين العابدين عليهما السلام يوم عرفة، وغيرها من أدعية الصالحين أساس منظومة عبادية وفكرية وروحية وأخلاقية ملأت التراث الإسلامي في كلّ مفاصل الحج ومواقعه و مناسكه، ممّا يجعل الدعاء والمناجاة

١. سورة البقرة: ١٢٩ .
٢. سورة إبراهيم: ٣٧ .

والتوجع لا تفارق الحجيج، وكيف تفارقهم والدعاء لبُّ العبادة،والحجّ كأيّ عبادة؛ يعالج ما فسد من الأخلاق ورذائلها، من قبيل الظلم والطغيان والكبر، كما في كلام الإمام عليه السلام في النهج؛ الخطبة١٩٦، وآلية الدعاء تُعدُّ أفضل الآليات لبناء النفوس ورقيها الإيماني؟!

التخصيص :

هناك تخصيص في بعض ما جاء من دعاء إبراهيم عليه السلام، أثار تساؤلات وتأويلات، والأهم من هذا هو ردود السماء... فلا بدَّ من الإشارة إليه:

الدعاء ا لأول :

﴿رَبَّنَآ إِنِّي أَسكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِى إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾. فقد خصَّ في دعائه ذريته بالرزق ﴿... وَارْزُقْهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ...﴾.

الثاني : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَـذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ...﴾.[1]

وأيضاً هنا في دعائه هذا خصَّ بالرزق: ﴿مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾.

وليس هذا التخصيص منه عليه السلام في الدعاءين فقط، فقد خصَّ أيضاً ذريته بالإمامة بقوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾، كما جاء في سورة البقرة:﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِى الظَّالِمِينَ﴾.[2]

---

١. سورة البقرة: ١٢٦ .

٢. سورة البقرة: ١٢٤ .

فمن عظمها في عين إبراهيم، قال: يا ربّ ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِى الظَّالِمِينَ﴾. كما جاء في رواية عن جابر، عن أبي جعفر عليه السلام... أبو حيان: وسؤال إبراهيم الإمامة لذريته شفقة عليهم ومحبة منه لهم، وإيثاراً أن يكون في ذريته من يخلفه في الإمامة.

أقول: وما إن يجد نبيُّ الله إبراهيم عليه السلام أمراً تلقيه إليه السماء وتكلّفه به، أو وسيلةً يدعو الله من خلالها، إلّا وتمنّى ذلك لذريته لا لكلها بل لبعضها، لتكون بذلك على أحسن ما يكون هو عليها، وبالتالي يكون له امتداد من البقاء روحاً ومنهجاً، وحظٌّ مبارك في أداء رسالة السماء، وشرفٌ في التمسّك بها والتضحية في تبليغها، ومن ذلك الإمامة المذكورة، فإبراهيم عليه السلام، وهو يتلقى بشرى الإمامة، لم يطلبها إلّا لبعض ذريته، وعياً منه لدور الإمامة العظيم والخطير الذي لا يناله إلّا ذو حظٍّ عظيم، والحظُّ العظيم لا يحصل إلّا عند القلّة القليلة أو الثلّة النادرة لا عند كلّهم، وهذا هو الممكن، الموافق للفطرة وسننها. فإبراهيم عليه السلام يتمنّى المعروف لكلِّ من له علاقة به، فتارةً يعبر عنه بذريته وأخرى بوالديه وببنيه، فنجده في دعائه: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَـذَا الْبَلَدَ ءَامِناً وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾. ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاَةِ وَمِن ذُرِّيَتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ﴾. ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾.[1]

نعود إلى دعائه عليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَـذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ...﴾. فقد سبق دعاءه بالرزق ﴿وَ ارْزُقْ أَهْلَهُ﴾، دعاؤه بالأمن والأمان: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَـذَا بَلَداً آمِناً﴾.

فذاك الوادي حين صار عامراً بالحياة، سكنه الناس وأحاطوا به، وكأنَّ إبراهيم عليه السلام استبشر خيراً، وهو يرى أنَّ هذا الوادي، مكة؛ وقد تكاثر الناس فيها ومن حولها،

١. سورة إبراهيم: ٣٥، ٤٠، ٤١.

وغـدت صـوب توجههم وموضـع اهتمامهم، فـأول ما يحتاجونه؛ ليسـود بينهم السـلام، ويحفـظ تجمعهـم هـو الأمن والأمـان، رفـع يديـه قائـلاً: ﴿وَإِذْ قَـالَ إِبْرَاهِيـمُ رَبِّ اجْعَلْ هَـــذَا بَـلَداً آمِنـاً...﴾. أي بعد ما صـار الوادي بلـداً، وسـكناً للوافدين إليـه، فصار يحتاج للأمـن، فدعـا ربَّـه به؛ ليخلـو من الاعتـداء، ومـن الخوف عـلى النفس والمـال والعرض، وكان عليه السلام ملتفتـاً إلى أنَّ الأمـن والأمـان لا يكفـي وحده؛ فالحياة الآمنة وحدها لا تسـتقر، حـين لا يكـون هنـاك ما يسـدّد هذا الأمـن ويعضـده، وحين لا يكـون فيها مـا يكفي من الـرزق، ومـا لم يتوفر لهم مـا يُلبّي ضرورياتهـم، ويجعلهم ينشـدّون إلى مكانهم، فلا تطمح نفوسـهم للارتحـال عنه، بـل ويكون سـبباً لإتيانهـم إليـه، واجتماعهم عنـده، ويصحُّ معه توجههـم للعمـل وللعبادة بعيـداً عن القلـق والظمإ والجـوع، فأعقبـه بدعائـه: ﴿وَ ارْزُقْ أَهْلَـهُ مِـنَ الثَّمَـرَاتِ﴾. إلّا أنّـه عليه السلام خصّـص هـذا الـرزق بـ: ﴿مَـنْ آمَـنَ مِنْهُمْ بِـاللَّهِ وَ الْيَـوْمِ الآخِرِ...﴾.

﴿مَـنْ آمَـنَ مِنْهُـمْ﴾، بدل مـن أهله؛ بدل البعـض من الـكلّ. وإنما خصّ بذلـك ﴿مَنْ آمَـنَ مِنْهُـمْ بِـاللَّهِ وَالْيَـوْمِ الآخِـرِ﴾. لأنـه وبكلمـة واحـدة مُلخِصـة أقوالهـم في أغلبها: «قـاس الـرزق على الإمامـة». فهو حينما دعـا ربَّـه بقولـه: ﴿وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِـنَ الثَّمَرَاتِ﴾، أي ارزق أهـل البلـد الـذي جاء بقولـه: وهو مكـة،﴿وَإِذْ قَـالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَـــذَا بَـلَداً آمِنـاً﴾. صار يحترس ويسـتثني ويحدّد من يعني بدعائـه هذا، وهم: ﴿مَـنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِـاللَّهِ وَ الْيَـوْمِ الآخِـرِ﴾. فهو عليه السلام قـد أفاد من قوله تعـالى في آية الإمامـة: ﴿لاَ يَنَالُ عَهْدِى الظَّالِمِينَ﴾، حينـما سـأله الإمامـة لذريتـه بقولـه: ﴿وَمِن ذُرِّيَّـتِى﴾، تأدباً منه بـالأدب الذي علمـه ربُّـه، فيراعيـه في طلبـه ودعائـه، فاسـتثنى وحـدّد مـن يعنيهـم بطلب الـرزق وهم المؤمنون.

وأمّـا من سـكت عنهـم، وهم الشـطر الآخر؛ شـطر الذيـن لا يؤمنـون، يجيئـه ردُّ ربِّه مكمـلاً ومبينـاً أنّـه يرزقهـم أيضـاً، ولكنـه متـاعٌ قليل فمصـير أليم: ﴿قَـالَ وَمَـن كَفَرَ فَأُمَتِّعُـهُ قَلِيـلاً ثُـمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَـذَابِ النَّارِ وَبِئْـسَ الْمَصِيرُ﴾. إنّه ذو الرحمة الواسـعة؛

جعل رزقه عاماً لكلا الفريقين؛ شاملاً مؤمنهم وكافرهم:

﴿كُلاًّ نُّمِدُّ هَـؤُلاءِ وَهَـؤُلاءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً﴾.[1]

يقول الرازي: لا جرم خصّص دعاءه بالمؤمنين دون الكافرين، وسبب هذا التخصيص النصُّ والقياس، أمّا النصُّ فقوله تعالى:

﴿فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾.[2]

وأمّا القياس فمن وجهين:

الوجه الأول: أنّه لمّا سأل الله تعالى أن يجعل الإمامة في ذريته، قال الله تعالى:

﴿لاَ يَنَالُ عَهْدِى الظَّالِمِينَ﴾.[3]

فصار ذلك تأديباً في المسألة، فلما ميز الله تعالى المؤمنين عن الكافرين في باب الإمامة، لا جرم خصص المؤمنين بهذا الدعاء دون الكافرين...

يقول الشيخ الطوسي: لأنَّ الله تعالى قد أعلمه أنّه يكون في ذريته الظالمون في جواب مسألته إيّاه لذريته الإمامة بقوله:

﴿لاَ يَنَالُ عَهْدِى الظَّالِمِينَ﴾.

فخصّ بالدعاء في الرزق المؤمنين تأدباً بأدب الله تعالى.

وقيل: إنّه عليه السلام ظنّ أنّه إذا دعا للكفار بالرزق أنّهم يكثرون بمكة ويفسدون، فربما يصدون الناس عن الحجّ فخصَّ بالدعاء أهل الإيمان.

حاشية القونوي، وبإيجاز: ... ومعنى التخصيص: تخصيص أهل الإيمان منهم بدعاء حصول الرزق لهم دون من عداهم من أهل الكفر، وتخصيص الدعاء بالمؤمنين إظهاراً لشرف الإيمان، وأنّه سبب للخصب والرخاء ودفع الضرر والبلاء، وترغيب

---

١. سورة الإسراء: ٢٠.

٢. سورة المائدة: ٦٨.

٣. سورة البقرة: ١٢٤.

لقومه في الإيمان، وزجر عن الكفر والطغيان... فخصَّ سؤاله بالمؤمنين.

قاس إبراهيم عليه الصلاة والسلام الرزق على الإمامة، و وجه القياس أنَّ الرزق موهب إلهي كالإمامة.

فنبّه سبحانه وتعالى على الفرق بينهما المانع من القياس، وهو أنَّ الرزق رحمة دنيوية محضة غير مختصّة تعمّ المؤمن والكافر بخلاف الإمامة والتقدم في الدين، أو أنّه تعالى لـمّا ﴿قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِى الظَّالِمِينَ﴾. احترز إبراهيم عليه السلام من الدعاء لمن ليس مرضياً عنده، فأرشده الله تعالى إلى كرمه الشامل.

يقول ابن عاشور: وخَصَّ إبراهيم عليه السلام المؤمنين بطلب الرزق لهم حرصاً على شيُوع الإيمان لساكِنيه؛ لأنّهم إذا علموا أنَّ دعوة إبراهيم عليه السلام خصّت المؤمنين، تجنبوا ما يحيد بهم عن الإيمان، فجَعل تيسير الرزق لهم على شرط إيمانهم باعثاً لهم على الإيمان.

أو أراد التأدب مع الله تعالى، فسأله سؤالاً أقرب إلى الإجابة، ولعلّه استشعر من ردِّ الله عليه عموم دعائه السابق؛ إذ قال: ﴿ومن ذرّيتى﴾.

فقال: ﴿لا ينال عهدى الظالمين﴾.

إنَّ غير المؤمنين ليسوا أهلاً لإجراء رزق الله عليهم، وقد أعقب الله دعوته بقوله: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً﴾. ومقصد إبراهيم من دعوته هذه أن تتوفر لأهل مكة أسباب الإقامة فيها، فلا تضطرهم الحاجة إلى سكنى بلد آخر؛ لأنه رجا أن يكونوا دعاةً لما بنيت الكعبة لأجله من إقامة التوحيد وخصال الحنيفية وهي خصال الكمال...[1]

أقول: أولاً: إنَّ آية الإمامة: ﴿... إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً وَمِن ذُرِّيَّتِى قَالَ لاَ

---

١. انظر البرهان في تفسير القرآن، هاشم الحسيني البحراني؛ البحر المحيط، أبو حيان؛ في ظلال القرآن، لسيد قطب؛ التفسير الكبير، للرازي؛ مجمع البيان، للشيخ الطبرسي؛ حاشية القونوي على تفسير الإمام البيضاوي ومعه حاشية ابن التمجيد٤ : ٢٢٥ـ٢٢٦، تفسير أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي؛ التحرير والتنوير، لابن عاشور: الآية. بتصرف في بعضها.

يَنَـالُ عَهْـدِى الظَّالِمِينَ﴾. وقد أعلمـه الله تعالى فيها بما معنـاه أن ليس للظالمين نصيب في الإمامـة، وإن كانـوا من ذريتـه، الظاهر أنَّها نزلت بعد مراحل عديدة من عمره الشـريف؛ بعـد نبوّتـه، وبعد ما تعرّض له بسـبب دعوتـه التوحيديـة وتبليغها قومه مـن الأذى حتى كادوا يُنهونـه حرقـاً؛ لولا مشـيئة السـماء، وبعد هجرتـه، وبعد رفع قواعد البيـت والأذان بالحـج... وبعـد أن اتخذه رسـولاً، وبعـد أن اتّخذه خليـلاً، ولعلّها جاءتـه في أواخر حياته.

فعـن زيـد الشـحام، قـال: سـمعت أبـا عبـد الله عليه السلام يقـول: إنَّ الله تبارك وتعـالى اتخذ إبراهيـم عليه السلام عبـداً قبـل أن يتخذه نبيـاً، وإنَّ الله اتخـذه نبياً قبـل أن يتخذه رسـولاً، وإنَّ الله اتخـذه رسـولاً قبل أن يتخـذه خليـلاً، و إنَّ الله اتخذه خليلاً قبـل أن يتخذه إمامـاً، فلمّا جمع لـه الأشـياء قـال: ﴿إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّـاسِ إِمَاماً﴾.

فآيـة الدعـاء الأولى بالرزق التـي تخصُّ ذريته، كانـت حين نزولـه الأول في وادي مكة ووضعـه زوجـه هاجـر وابنه إسـماعيل: ﴿رَبَّنَـآ إِنِّى أَسـكَنتُ مِـن ذُرِّيَّتِى بِـوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِنـدَ بَيْتِـكَ الْمُحَـرَّمِ رَبَّنَـا لِيُقِيمُـواْ الصَّـلاَةَ فَاجْعَـلْ أَفْئِـدَةً مِّنَ النَّـاسِ تَهْوِى إِلَيْهِـمْ وَارْزُقْهُـمْ مِّنَ الثَّمَـرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْـكُرُونَ﴾.

أمـا الثانيـة والكلام فيها التـي تخصُّ ﴿مَنْ آمَـنَ مِنْهُمْ..﴾، نزلت حسـب التاريخ؛ لعلّه والله أعلـم بعـد أن صـار ذلـك الوادي بلـداً له وجـود وفيه بـشر، وبعد اسـتقرار أهله به، وهـذا تـمَّ بعـد إسـكانه عليه السلام بعض ذريتـه بزمـن، وبعد رفعـه لقواعـد البيت كـما في: ﴿وَإِذْ يَرْفَـعُ إِبْرَاهِيـمُ الْقَوَاعِدَمِنْ الْبَيْتِ وَإِسْـمَاعِيل...﴾.[1]

وبعـد آيـة الأذان: ﴿وَأَذِّن فِى النَّـاسِ بِالْحَـجِّ يَأْتُوكَ رِجَـالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِـرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَـجٍّ عَمِيـقٍ﴾.[2] أي بعد بنـاء البيت، ودعوة النـاس لحجّه، وبعد أن صـار الوادي آهلاً بالنـاس، وقـد سـبق دعـاؤه بالأمـان دعـاءه بالـرزق بالآيـة التي جـاء فيها تخصيصـه بـ:

١. سورة البقرة: ١٢٧.

٢. سورة الحج: ٢٧.

﴿مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾.

فابن عاشور يقول: والظاهر أنّ دعوة إبراهيم المحكية في هذه الآية (البقرة:١٢٦)، كانت قبل أن تتقرى مكة حيث لم يكن بها إلّا بيت إسماعيل أو بيت أو بيتان آخران؛ لأنَّ إبراهيم ابتدأ عمارته ببناء البيت من حجر؛ ولأنَّ إلهام الله إيّاه لذلك، لإرادته تعالى مصيرها مهيع الحضارة لتلك الجهة إرهاصاً لنبوّة سيدنا محمّدﷺ، ويحتمل أنَّ ذلك المكان كان مأهولاً بسكان وقت مجيء إبراهيم وامرأته وابنه، والعرب يذكرون أنّه كان في تلك الجهة عشائر من جرهم وقطور والعمالقة والكركر في جهات أجياد وعرفات.

أريد من هذا أن أقول: إنَّ الفرق الزمني طويل جدًّا بين آية الإمامة وآيتي الدعاء اللتين وقع فيهما تخصيص الرزق. فضلاً عن أنَّهعليه السلام لم يكن إماماً وقت ذينك الدعاءين، فكيف قاس دعاء الرزق على دعاء الإمامة؟

وأمّا الاحتجاج بالسياق، ففيه تقديم وتأخير كما ذكر الرازي عن القاضي أنّه قال: في هذه الآيات تقديم وتأخير؛ لأنَّ قوله: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَـذَا بَلَدًا آمِنًا﴾، لا يمكن إلّا بعد دخول البلد في الوجود، والذي ذكره من بعد، وهو قوله: ﴿وإِذْ يَرْفَعُ إِبْراهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ﴾، وإن كان متأخراً في التلاوة فهو متقدّم في المعنى.

فآية الإمامة رقمها١٢٥وآية الدعاء الثانية١٢٦. وآية: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْراهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ﴾.[1]

وثانياً: أنَّ الرزق ليس كالإمامة، فهو سبحانه يرزق الكافر، ثمَّ عذاب ينتظره... ويرزق الظالم ولكن لا يجعله إماماً، وهذا إخبار لإبراهيمعليه السلام عن تخصيصه الإمامة بذريته، ﴿قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِى الظَّالِمِينَ﴾.

بمعنى أنَّ الله سبحانه وتعالى رازقهم جميعاً مؤمنهم وكافرهم: ﴿... وَمَن كَفَرَ

١. سورة البقرة: ١٢٨ .

فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾.[1]

فكلا التخصيصين في دعاء إبراهيم عليه السلام، أجابت السماء عنهما، وأوضحت أنَّ الرزق لا يخصص بالمؤمن دون الكافر، فيما أنَّ الإمامة تخصص بغير الظالم.

قال ابن عباس: كان إبراهيم يحجرها على المؤمنين دون الناس، فأنزل الله: ﴿وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ﴾، أيضاً أرزقهم كما أرزق المؤمنين، أأخلق خلقاً لا أرزقهم؟ ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ.﴾ ثمّ قرأ ابن عباس: ﴿كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً﴾.[2]

بعد هذا يتضح أنَّ الدور التأسيسيّ لهذا البيت مرَّ بمراحل ومواقف، وتضمَّن مقدمات ونتائج، لا يمكن تجاوز كلّ ذلك في أيّ موقف وظاهرة أو بحث ومقالة تتحدث عن هذه البقعة، بل والبقاع التي تحيطها، التي شعَّ نورها وبركاتها؛ لتعمَّ الدنيا كافة...

وممّا يترتب على هذا الدور أو يتمخض عنه، تحقيق الأهداف الجليلة؛ وأهمها إعادة بناء عقيدة التوحيد وهو دور كبير ومهمّة كبرى، بعدما أصابها من تحريف وشرك، وتدنيس لهذه الأرض المباركة وتلويث لمعالمها... وقد كلّفت السماءُ نبيَّها إبراهيم عليه السلام بذلك؛ ليؤدي هذا الدور في عالم شُوّهت به معالم التوحيد، وضاعت مفاهيمه بين قطع أصنام هنا وأوثان هناك، وبين طغيان هنا وتسلط هناك، وتجهيل للخلق هنا، وظلم واستضعاف هناك...

فالبيت الحرام هو بناء وتحصين لعقائد سليمة، وهو بقعة طهر يُتزوّد منها، وهو بناء للنفوس، وتطهير للقلوب...! وهو دار ابتلاء، وهو دار عبادة وحجٍّ وعمرة، وهو بيت مثابة وتوبة ومغفرة ورضوان، ومَعلمٌ لقبلة مباركة نتوجه إليها في صلاة وعبادة ودعاء.

١. سورة البقرة: ١٢٦.

٢. سورة الإسراء: ٢٠.

وبعد تلك المراحل التأسيسية المباركة، حلّت مرحلة: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾.[1]

فالأذان بالحج نطقت به الآية، وجاءت به الرويات والأخبار، نذكر منها: و لـمّا فرغ إبراهيم عليه السلام من بناء البيت، أمره الله أن يؤذن في الناس بالحج، فقال: يا ربّ، و ما يبلغ صوتي؟ فقال الله تعالى: عليك الأذان وعليّ البلاغ. وارتفع على المقام و هو يومئذٍ يلاصق البيت، فارتفع به المقام حتى كأنّه أطول من الجبال فنادى، و أدخل إصبعيه في أذنيه، وأقبل بوجهه شرقاً وغرباً، يقول: أيّها الناس كتب عليكم الحج إلى البيت العتيق فأجيبوا ربّكم، فأجابوه من تحت البحور السبعة، ومن بين المشرق والمغرب إلى منقطع التراب من أطراف الأرض كلّها، و من أصلاب الرجال وأرحام النساء بالتلبية: لبّيك اللهمّ لبّيك. أولا ترونهم يأتون يلبون؟

فمن حج من يومئذٍ إلى يوم القيامة، فهم ممّن استجاب لله، وذلك: قوله: ﴿فِيهِ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾.[2] يعني نداء إبراهيم عليه السلام على المقام بالحج؛ أنّه قال: يارب، كيف أبلغ الناس وصوتي لا ينفذهم؟ فقال: نادِ وعلينا البلاغ. فقام على مقامه، وقيل: على الحجر، وقيل: على الصفا، وقيل: على أبي قبيس، وقال: يا أيّها الناس إنَّ ربّكم قد اتخذ بيتاً فحجّوه!

فيقال: إنَّ الجبال تواضعت حتى بلغ الصوت أرجاء الأرض، وأسمع من في الأرحام والأصلاب، وأجابه كلُّ شيءٍ سمعه من حجر ومدر وشجر، ومَن كتب الله أنّه يحجُّ إلى يوم القيامة: لبّيك اللهمّ لبّيك.[3]

---

١. سورة الحج: ٢٧ .

٢. سورة آل عمران: ٩٧ .

٣. البرهان في تفسير القرآن، هاشم الحسيني البحراني ؛ تفسير القرآن العظيم، ابن كثير الآية: ٢٧ الحجّ.

لقد انطلقت مع هذا الأذان بركاتُ السماء؛ لتعمَّ الكون كلَّه، فسمعت من قبل الخلق وهم أجنّة في الأصلاب، وبلغت آذان كلّ مَن كتبت السماء له هذه الفريضة على الخصوص، ولتبقى خالدةً حتى انتهاء الدنيا ومَن عليها، واتَّجهت الأنظار نحو بيت الله الحرام الذي انطلق منه أذان دعوة الحج، فانشغلت به نفوسهم قربت منه أو بعدت، وتعلقت به أفئدتهم، فراحت تهوي إليه، تميل إليه، ترفُّ إليه، كما قد رفّت ومالت وهوت إلى تلك الذرية الصالحة الطيبة البريئة، يومذاك؛ استجابةً لدعاء إبراهيم عليه السلام ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾.

يقول الإمامُ عليٌّ عليه السلام في الخطبة ١٩٢: «ثُمَّ أمَرَ آدَمَ وولَدَهُ أنْ يَثْنُوا أعْطَافَهُمْ نَحْوَهُ، فَصَارَ مَثَابَةً لِمُنْتَجَعِ أسْفَارهِمْ وغَايَةً لِمُلْقَى رحَالِهِمْ، تَهْوي إلَيْهِ ثِمَارُ الأفْئِدَةِ مِنْ مَفَاوز قِفَار سَحِيقَة ومَهَاوي فِجَاج عَمِيقَة، وَجَزَائِر بحَار مُنْقَطِعَة».

فلذلك أفئدة الناس إلى الآن تنزع إلى الحج، وتهوي إلى الحجِّ، وترفُّ إليه، غير غافلة عنه، حافظةً له، تشتاق إليه، غير منشغلة بغيره.

قال سيد قطب: ثمّ أمر الله إبراهيم عليه السلام باني البيت إذا فرغ من إقامته على الأساس الذي كلف به أن يؤذّن في الناس بالحج؛ وأن يدعوهم إلى بيت الله الحرام، ووعده أن يلبّي الناس دعوته، فيتقاطرون على البيت من ﴿كُلِّ فَجٍّ﴾، رجالاً يسعون على أقدامهم، وركوباً ﴿عَلَى كُلِّ ضَامِرٍ﴾، جهده السير فضمر من الجهد والجوع... ثمَّ يقول: وما يزال وعد الله يتحقق منذ إبراهيم عليه السلام إلى اليوم والغد، وما تزال أفئدة من الناس تهوي إلى البيت الحرام؛ وترف إلى رؤيته والطواف به... الغني القادر الذي يجد الظهر يركبه ووسيلة الركوب المختلفة تنقله؛ والفقير المعدم الذي لا يجد إلّا قدميه. وعشرات الألوف من هؤلاء يتقاطرون من فجاج الأرض البعيدة تلبية لدعوة الله التي أذن بها إبراهيم عليه السلام منذ آلاف الأعوام.

ويفتتح الشعراوي كتابه بقوله: بحلول موسم الحجّ في كلّ عام تمتلئ القلوب شوقاً

للذهـاب إلى بيـت الحـرام؛ لأداء فريضة الحج وزيارة قبر الرسـول اللهﷺ، لمـا في ذلك من متعـة روحيـة لا تعادلهـا متعـة أخرى، من إحسـاس بالقـرب مـن الله، ومن انشـغال بالله سـبحانه وتعـالى عـن خلقه جميعاً سـواء أكانوا أهـلاً أم أقارب أم عشـيرة أم غـير ذلك من صـلات القربـى؟[1] سـاعيةً ملبيـةً نداء نبـيّ الله وخليلـه إبراهيـمعليه السلام، فكان الحـجُّ فريضةً أو مسـتحباً؛ وكـذا العمـرة، واحداً مـن مصاديق ذلـك الهويِّ لهـذه البقعة، والحنـو إليها، والـولاء للبيـت الحـرام الذي اسـتمدّت تلك البقعـة مكانتها وحرمتهـا وبركتها منه.

له مكان و وقت معلوم :

فالحـجُّ هذا المنسـك الذي هـو الأهم لا يصحُّ أداؤه بمناسـكه كلّهـا إلّا في تلك البقاع، ولا يصـحُّ إلّا في زمـن معـيّن، في أوقات معيّنـة، أمكنة هي الأخرى معروفـة ولها حدود.

وكـذا العمـرة لهـا ذلـك المـكان وتلـك البقعـة المباركـة، إلّا أنَّ وقتهـا غير محـدّد، وإن تفاوتـت الأوقـات من حيـث كون بعضهـا أكثر فضيلـةً وأجراً مـن غيره... وهكـذا كان الأذان، لـه موقـع معـين مـن قِبـل السـماء، لا مـن أي مـكان، بل من ذلـك الـوادي الذي وصفته السـماء بأنّـه: ﴿غَيْرِ ذِى زَرْعٍ﴾. مـن قلب مكة: ﴿عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾. من فوق المقـام، قـام عليـه عنـد رفعـه لقواعـد الكعبة، وقـام عليه أخـرى لـلأذان والنـداء للحج. حتـى بلـغ الآفـاق، وراحت تتناقلـه القـرون والأجيـال؛ ليُختـم بالبشـارة المباركة لخليل الرحمـن، المتمثلـة ببعثة سـيد الأنبياء مُحَمَّـد بن عبـد اللهﷺ: ﴿رَبَّنَـا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُـولاً مِّنْهُـمْ يَتْلُـواْ عَلَيْهِمْ آيَاتِـكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَـابَ وَالْحِكْمَـةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنـتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾.[2]

ليواصـلﷺ تفعيـل أذان المـشروع الإبراهيمي المبـارك، فيتّخذ الرسـولﷺ المبعوث

١. انظر في ظلال القرآن: الآية. والحجّ المبرور.

٢. سورة البقرة: ١٢٩.

مـن حـجِّ الكعبـة وبيتها الحـرام وأطرافـه القريبة منـه والبعيدة شـيئاً مـا؛ رُكناً مـن أركان الإسـلام، فريضةً مـن فرائضه العباديـة والاجتماعية والأخلاقية لمن اسـتطاع إليه سـبيلاً: ﴿وَلِلّهِ عَلَى النّـاسِ حِـجُّ الْبَيْـتِ مَـنِ اسْـتَطَاعَ إِلَيْـهِ سَـبِيلاً...﴾.[1] ومسـتحباً لغيرهم؛ فتخلـد دعـوة إبراهيم عليه السلام، وتتجسّـد في القلوب والآمـال... فتراهم فيه وهـم بين طائف بالبيـت ومصـلٍّ خلـف المقام أو قريبـاً منه، وسـا بين جبلي الصفـا والمروة مقتـدٍ بما ورثه مـن سـيدتنا هاجـر أمِّ إسـماعيل التي أكرمهـا الله تعـالى بما خلَّد اسـمها وذكرهـا بخلوده، وبـين مـن يحاذون حِجر إسـماعيل بتوسـلهم وأدعيتهـم، وبين متـبركٍ بماء زمـزم، المنبعث تحـت قدمـي إسـماعيل وبـين يديه؛ معـالم ثلاثة لهـما، لا تـترك من قبـل حـاجٍّ أو معتمر... وبـين واقفٍ هناك بعيـداً عن البيت الحـرام في عرفات والمزدلفة فمنى، ورام لمواقع السـوء وجمـرات الضـلال، وبـين ذابـح للهـدي والأضاحـي لله تعـالى دون أن ينسـى: ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْـحٍ عَظِيـمٍ﴾. وهو ذكر خالـد يضاف لنبيِّ الله إسـماعيل عليه السلام.

و... فلعلَّهـم بهـذا يحققـون أنّهـم المصـداق الأمثـل لأُمَّـةٍ واحـدة بشـعوبها وقبائلها، يُوحدهـم المنسـك الواحـد، وتجمعهم القبلـة الواحدة، والدعـاء الخالد: ﴿رَبَّنـا تَقبَّل مِنَّا إنَّكَ أنـتَ السَّـميعُ الْعليمُ﴾.

حتـى صـحَّ أن يكـون الحـج أعظم مؤتمـر تجتمع فيـه الأفئـدة المؤمنـة في بقعـةٍ واحدةٍ مباركـةٍ؛ وأنَّ لهـا فيه حياةً طيبـةً، وهو ما يهدف إليـه مشروع نبيِّ الله وخليلـه إبراهيم عليه السلام، وبالتـالي يصـدق فيهـا قوله تعـالى: ﴿إنَّ أولىَ النَّـاسِ بإبراهيمَ لَلّذيـنَ اتَّبَعُوهُ وَهـذَا النَّبيُّ والذيـنَ آمَنُوا﴾.[2]

إذن فالحـجُّ مـن حيث المـكان، لا تصحُّ أعمالـه؛ إلّا في مواقع محـددة؛ فالطواف لا يجوز إلّا حـول الكعبة المباركة: ﴿وَلْيَطَّوَّفُـواْ بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾.[3]

١. سورة آل عمران: ٩٧.
٢. سورة آل عمران: ٦٨.
٣. سورة الحجّ: ٢٩.

والسعي إلّا بين الصفا والمروة: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾.[1]

والوقوف إلّا في عرفات والمزدلفة: ﴿لَيْسَ عَلَيكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُواْ اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَداكُمْ وَإِن كُنْتُمْ مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ﴾.[2]

وكما للحجِّ أمكنة متعددة ومعيّنة، له زمن معين، ﴿اَلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ﴾.[3]

قال الزمخشري: معروفات عند الناس لا يشكلن عليهم.

قال الطبرسي: ﴿أَلْحَجُّ﴾: أي أشهر الحج ﴿أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ﴾. أي أشهر مؤقتة معينة لا يجوز فيها التبديل والتغيير بالتقديم والتأخير اللذين كان يفعلهما النَّسَأَة الذين أنزل فيهم: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾.[4]

وأشهر الحج عندنا شوال وذو القعدة وعشر من ذي الحجة على ما روي عن أبي جعفر عليه السلام، وبه قال ابن عباس ومجاهد والحسن وغيرهم، وقيل: هي شوال وذو القعدة وذو الحجة عن عطاء والربيع وطاووس، وروي ذلك في أخبارنا، وإنّما صارت هذه أشهر الحج؛ لأنّه لا يصحّ الإحرام بالحج إلّا فيها بلا خلاف، وعندنا لا يصح أيضاً الإحرام بالعمرة التي يتمتع بها إلى الحج إلّا فيها...[5]

وله: ﴿أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ﴾، أو ﴿أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ﴾. كما يأتي.

---

١. سورة البقرة: ١٥٨.

٢. سورة البقرة: ١٩٨.

٣. سورة البقرة: ١٩٧.

٤. سورة التوبة: ٣٧.

٥. الكشاف، للزمخشري؛ مجمع البيان، للطبرسي: الآية.

فالحـجُّ بأقسـامه الثلاثـة (تمتـع وقِران وإفـراد)، فلا يصـحُّ أن يـؤدّى إلّا في وقت معين من السَّـنة، فالمكلف عليه أن لا يؤدّي فصل مناسـكه الأول أي (العمـرة، أو عمرة التمتع) إلّا في أشـهر الحـج: شـوال وذي القعـدة وذي الحجّـة، فيما يكـون أداء فصلـه الثاني (الحج أو حـج التمتـع) في شـهر ذي الحجّة بـدءًا بالتاسـع منه. هذا من حيـث الزمن.

وهكـذا رمـي الجمرات والأضحيـة والحلق، إلّا في منـى في أيام التشريـق، وهي الأيام المعـدودات في قـول الله تبـارك وتعـالى: ﴿وَاذْكُـرُواْ اللَّهَ فِي أَيَّـامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَـن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَـيْنِ فَـلاَ إِثْـمَ عَلَيْـهِ وَمَـن تَأَخَّرَ فَـلا إِثْمَ عَلَيْـهِ لِمَنِ اتَّـقَى وَاتَّقُـواْ اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُـمْ إِلَيْهِ تُحْـشَرُونَ﴾.[1]

فمنسـك الحـج إذن يختلـف عـن غـيره مـن العبـادات؛ فالصلـوات الخمس لهـا وقت معـيّن لأدائها، وقد اسـتفيد ذلك مـن آيات قرآنيّة؛ فضـلاً عن الروايـات... ومن الآيات: ﴿أَقِـمِ الصَّـلاَةَ لِدُلُـوكِ الشَّـمْسِ إِلَى غَسَـقِ الَّيـلِ وَقُـرْآنَ الْفَجْـرِ إِنَّ قُـرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْـهُوداً * وَمِـنَ الْلَّيْـلِ فَتَهَجَّـدْ بِـهِ نَافِلَـةً لَّـكَ عَـسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّـكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً﴾.[2]

﴿أَقِـمِ الصَّـلاَةَ طَـرَفَيِ النَّهَـارِ وَزُلَفـاً مِّـنَ الَّيْـلِ إِنَّ الْحَسَـنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّـيِّئَاتِ ذَلِـكَ ذِكْـرَى لِلذَّاكِرِيـنَ﴾.[3] دون أن يكـون لهـا أمكنة مخصصـة؛ إلّا من حيـث الفضيلة ودرجاتهـا... وكـذا فريضـة الصيـام لهـا زمن محـدّد؛ فقـد: ﴿... كُتِـبَ عَلَيْكُـمُ الصِّيَامُ ... أَيَّامـاً مَّعْـدُودَاتٍ...﴾، وهـي: ﴿شَـهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْـزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُـدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَـاتٍ مِّـنَ الْهُـدَى وَالْفُرْقَـانِ فَمَن شَـهِدَ مِنكُمُ الشَّـهْرَ فَلْيَصُمْـهُ...﴾.[4] فله زمن، وليـس لـه مـكان مخصّـص، فللمسـلم أن يؤدّيه في بلـده أو حيـث قـرّر الإقامة...

---

١. سورة البقرة: ٢٠٣ .

٢. سورة الإسراء: ٧٨ ٧٩ .

٣. سورة هود: ١١٥ .

٤. سورة البقرة: ١٨٤ ١٨٥ .

قـال الشـعراوي: معظـم الفرائـض التـى فرضت علينـا غير مقيـدة بمـكان أو زمان، أمّـا الحـجُّ فإنّـه يختلف عن سـائر العبادات مـن حيث إنـه مقيد زمانـاً ومكانـاً، وعلى هذا فـلا يصـح أن تحـج وأنت في بيتـك أو موطنك، بـل لابدّ أن تذهـب إلى بيـت الله الحرام في مكـة، ولا يصـح أن تقـف في يـوم عرفـة في أيّ مـكان، بل لابـدّ أن تذهـب إلى عرفات في التاسـع مـن ذي الحجـة وتقـف في المكان المحـدّد للوقـوف لا تتعـداه، كما لا يحـقّ لك أن تؤدّي مناسـك الحج في أيّ شـهر من شـهور العام، بل لابدّ أن تكون في شـهر ذي الحجة، وهكـذا نعلـم أنَّ الحج هـو الفريضة الوحيـدة المقيدة زمانـاً ومكاناً، ولذلـك كان جزاؤها غفـران الذنـوب؛ لأنّهـا من أكثـر الفرائض مشـقة على النفـس المؤمنة.[1]

ولهـذا وبعـد أن يذكر في مـكان آخر من كتابـه: أنَّ الحجَّ هـو الفريضة الوحيـدة المقيدة زمانًـا ومكانًـا، يقـول: ولذلـك كان جزاؤهـا غفـران الذنـوب؛ لأنّهـا من أكثـر الفرائض مشـقة على النفـس المؤمنة.

يُفارق كلَّ شيء !

إذن؛ فالحـاجّ ينتظـر رحلـةً مباركـةً في كلِّ ما فيهـا، يُفـارق بهـا كلَّ شيء... ولماذا يترك كلَّ شيءٍ حتـى أعزّته؟

لمـا في ذلـك من متعـة روحية لا تعادلهـا متعة أخرى، بالإحسـاس من القـرب من الله، ومـن انشـغال بالله سـبحانه وتعالى عن خلقه جميعاً سـواء أكانـوا أهلاً أم أقارب أم عشـيرة أم غـير ذلك من صـلات القربى...[2]

يلتـزم بالفـراق عـلى مرارتـه؛ ليـؤدّي مـا أمرته السـماء بـه، فيلتقـي بكلّ خـير ومغفرة ورحمـة ... يـترك مـا اعتـاده وتعلّمـه وعمل بـه؛ ليكون، وهـو في تلـك الديـار والأماكن

١. الحجُّ المبرور، ذيل الآية الشريفة .

٢. الحج المبرور، ذيل الآية الشريفة .

المباركـة، قريباً في علاقته بالسـماء؛ بل وأكثـر قرباً في ذكره لله تعالى، والأفضـل قبولاً وثواباً وأجـراً في أدائـه لعباداته ومواقفه؛ في نيّتـه وإحرامه وتلبيته، وفي طوافه وسـعيه...، وهكذا هـو في صلاتـه وتسـبيحه، وفي سـيرته وأخلاقه وإحسـانه، يـزداد طاعـةً وعبـادةً وخُلقاً، ويتـزوّد تقوًى وخشـيةً وخشـوعاً، قـد لا يجد ذلـك وهو مشـغول بأهله وأحبّتـه وتجارته وأعمالـه التـي تتصاغر كثيراً في نظـره، وتتضاءل أكثـر وهو يعيش أعظـم وأفضل حالات القـرب من السـماء في تلك الأيـام! فلا يشـغله شيءٌ عن ذكـر الله تعالى، وأداء مناسـكه... ﴿فِي أَيَّـامٍ مَعْـدُودَاتٍ﴾، أو ﴿فِي أَيَّـامٍ مَعْلُومَـاتٍ﴾، كـما في الآيتـين المباركتـين: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّـامٍ مَعْـدُودَاتٍ فَمَـنْ تَعَجَّـلَ فِي يَوْمَـيْنِ فَلا إِثْمَ عَلَيْـهِ﴾.[1] ﴿لِيَشْـهَدُوا مَنَافِعَ لَهُـمْ وَيَذْكُـرُوا اسْـمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَـا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَـةِ الأَنْعَامِ﴾.[2] التي يُحـبُّ الله تعـالى أن يُذكـر فيهـا؛ لحكمة بل لِحِكـم هو الأعلم بهـا... ولعلّهـا فرصة منحها الله سـبحانه عباده؛ لإعادة حسـاباتهم وتقييم سـيرهم... ولتوبتهم ولاسـتقامتهم، ولأجر عظيـم وثـواب جزيل ينتظرهـم إن في الدنيـا وإن في الآخـرة، ورضًا مـن الله أكبر...

شُعْثاً غُبْراً!

وكيـف لا يكـون الأمـر كذلـك والحجيـج ذكـوراً وإناثـاً تراهم قـد أحرمـوا وارتَدوا أبسـط الثياب..؟!

يصـف الإمـامُ عـليٌّ عليه السلام حالهم قائـلاً: «حَتَّى يَهُـزُّوا مَنَاكِبَهُـمْ ذُلُـلاً، يُهَلِّلُـونَ لله حَوْلَهُ، وَيَرْمُلُـونَ عَـلَى أَقْدَامِهِـمْ شُـعْثاً لَـهُ، قَـدْ نَبَـذُوا السَّرَابِيـلَ غُـبْراً وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ، وَشَـوَّهُوا بِإِعْفَـاءِ الشُّـعُور مَحَاسِـنَ خَلْقِهِمُ»!

ولمـاذا هـذا كلّه؟! يجيب الإمـام عليه السلام قائلاً: «ابْتِـلاَءً عَظِيـماً، وَامْتِحاناً شَـدِيداً، وَاخْتِبَاراً مُبِيناً، وَتَمْحِيصـاً بَلِيغاً...».

---

١. سورة البقرة: ٢٠٣.

٢. سورة الحج: ٢٨.

«شُعْثاً غُبْراً» يدلّ على أنّهم أقرب إلى المسكنة وانكسار القلوب ممّا يكون سببًا في قَبول دُعائهم ومناسكهم! وقد ورد هذا الوصف لهم فيما سمّي بحديث المُباهاة بالحجّاج، عن أنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وآله «أنّ الله تعالى يباهي بأهل عرفات الملائكة يقول: يا ملائكتي انظروا إلى عبادي شعثاً غبراً، أقبلوا يضربون إليّ من كلِّ فجّ عميق، فأشهدكم أنّي قد أجبت دعاءهم، وشفعت رغبتهم، ووهبت مسيئهم لمحسنهم، وأعطيت محسنهم جميع ما سألوني غير التبعات التي بينهم، فإذا أفاض القو إلى جَمْع، ووقفوا وعادوا في الرغبة والطلب إلى الله يقول: يا ملائكتي، عبادي وقفوا وعادوا في الرغبة والطلب، فأشهدكَ أنّي قد أجبت دعاءهم وشفعت رغبتهم ووهبت مسيئهم لمحسنهم، وأعطيت محسنهم جميع ما سألني، وكفلت عنهم بالتبعات التي بينهم»![1]

كان هذا انتظاراً منهم لما أُعدَّ لهم من قبل الله تعالى، وهم يتنقلون في العرصات المباركة بحالتهم ووصفهم (شعثاًغبراً)، شعورهم منتفشة منتشرة لبقائها مكشوفة، وعلى بشرتهم وشعورهم أثر الغُبار والتُّراب بسبب طول مُدة الإحرام، والبُعد عن التَّرَّفه... وهم في هذه الصفة يكونون أقربَ إلى انكسار القلوب، وصفة المسكنة، مما يكون سببًا في قبول دعائهم وتوسلهم وتضرعهم ومناسكهم!

التلبيّة:

لَبَّى، يُلَبّي، تلبيةً، لَبَّى النِّداءَ، لَبَّى دعوته: استجاب له.

وهناك تلبيتان:

تلبية: استجابة، لكنّها تلك التي يختم بها الإنسان حياته، حين يُلَبّي نداءَ ربِّه، فيرحل إليه، يقدم سيرته بين يديه، فإمّا نعيم مقيم، وإما عذاب أليم!

وتلبية في موسم الحجِّ، فالحجُّ دعوة من الله تعالى إلى أن يحلَّ عباده ضيوفاً عليه...

١. مجمع البيان، للشيخ الطبرسي الآية: ٢٨ الحج.

كانت هذه الدعوة عبر الأذان المبارك لإبراهيم عليه السلام: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾.[1] واستجابة منهم، وذلك حين يُلبّي الحجيج؛ بجموع غفيرة حاشد دعوة ربِّهم تلك، ونداءه لهم، قائلين: لبّيك اللّهمّ لبّيك...! لقد راحوا، وهم في حالتهم تلك التي وصفها إمام التقين، يلبوون ذلك الأذان الإبراهيمي الخالد وذلك النداء الحقّ، بأصدق نيّاتهم، وبانقطاع إليه تعالى وحده، وبأعلى أصواتهم: لبّيك اللّهمّ لبّيك، لبّيك لا شريك لك لبّيك، إنَّ الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك لبّيك!

وهم بتكرارها كأنهم يقولون: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾.[2]

وإنَّ ما فيهم من نعم هي منك وحدك لا شريك لك، ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ...﴾.[3] ليُسجّلوا بتلبيتهم هذه واستجابتهم طاعةً لأمره تعالى وقبولاً عنده وأجراً جميلاً. كما أنَّ الحاج بتلبيته هذه يُعلنها صريحةً أنّه مستجيب لذلك الداعي، ممتثل لدعوته، مرحّب بتكليفه حجّ بيته العتيق، وشاكر ربَّه الذي رزقه قدرةً وصحّةً ومالاً وأماناً؛ حتى يكون بين يديه فيما ارتضاه من منازل عبادةٍ عبر حجّ وعمرة، عبر فريضة ومستحب، عبر عمل صالح ودعاء...

فالإنسان المسلم المكلف بالأخص، ينبغي بل يجب عليه أن يتلقى أيّ تكليف؛ أكان أمراً بأن يفعل أم تركاً بأن لا يفعل، أم ندباً، بالقبول والامتثال، وهو ما عليه الصالحون من تلبية ذلك بشوق والتزام؛ لأنَّ كلّ شيء من قبل الله تعالى، أحبته قلوب المؤمنين، استيقنته نفوسهم، فتكاليفه محبوبة إليهم، وإلّا فالتكاليف عادةً من عنوانها لا تخلو من مشقة وتعب... تستشعر نفوس مشقتها، فيما الصالحون يتلقونها بشغف وشوق، وإن خلت حياتهم منها انعدمت من لذّة مناجاته تعالى، وسعادة امتثال ما يريده منهم، فهم يستقبلون تكاليف السماء بعشق عجيب... والحجُّ فريضة كان جزاؤها غفران

---

١. سورة الحج: ٢٧ .
٢. سورة البقرة: ٢٨٥ .
٣. سورة النحل: ٥٣ .

الذنـوب؛ لأنّهـا مـن أكثـر الفرائض مشـقة على النفـس المؤمنة، كـما يصرح الشـعراوي في كتابه الحـجّ المبرور.

والسـياق في: «إنَّ الحمـد والنعمـة لـك والملـك...». يقتـضي أن تقـدم النعمـة ويؤخر الحمـد؛ لأنَّ الحمـد لا يكـون إلّا عـلى النعمـة، وهنـا تقدّم الحمـد وتأخرت النعمـة، فهذا يـدلّ عـلى نعمـة تقدمـت وسـبقت فجـاء الحمـد بعدهـا، إنّها تلـك النعمـة الكبـيرة التي جعلـت هذا الإنسـان مؤمناً أولاً، وجعلته مسـتطيعاً ثانيـاً، أي وفّر لك شرط الاسـتطاعة بأنواعهـا، فوفّقـت للحج، فأنت حين تقـول: (إنَّ الحمـد...) فكأنّك بهذا تحمـد الله تعالى عـلى نعمتـين، النعمـة الأولى: نعمـة تمكينـك من السـفر للحـج بتوّفـر شروطـه. والنعمة الأخـرى: نعمـة السـلامة وديمومـة الإيـمان، وأنّك وُعـدتَ، بل عُـدت مغفـور الذنب؛ لتواصـل حياتـك مـن جديد تـاركاً ما مـضى من معـاص، عاقـداً العزم على سـيرة أخرى تخلـو مما يُعصـى الله تعالى به، فنِعـمُ الله تعالى عليك متواصلة، فهـي لا تنتهي ولا تتوقف: ﴿مَـا عِندَكُمْ يَنفَـدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَـاقٍ...﴾.[1]

والحمـد لله تعـالى لا يتأخـر منـك ولا ينقطـع، يعتقـده قلبـك ويلهـج بـه لسـانك، (...والملـك) فملـك الله تعـالى بـاق ودائـم وهـو أعظـم النعـم التي تـلازم ذلـك الملك، فهـي دائمـة بدوامـه متواصلـة بتواصلـه، (لا شريـك لـك...).

وهنـا حملـت التلبية هـذا الأمر الذي يكـرّره الحاج؛ ليثبّت بـه فؤاده، ويزيـده اطمئناناً، بـأنَّ الله تعـالى واحـد أحد، ليـس له هنا أو هنـاك شريك ينازعـه فيما يخلق، فيـما يُحيي وفيما يُميـت، فيـما يُعطي وفيـما يمنع، فيما يأمـر وفيما ينهى، متفـرد بالخلق والإبـداع، فهو وحده المُبـدع، الخالـق المدبّـر الـذي لا شريـك لـه فيـما أبـدع وفيما خلـق، وهـو المالـك الذي لا شريـك لـه في الملـك... وما إلى ذلك مـن الحياة والمـوت والـرزق والعافية...

وهنـا ينبغـي أن يتذكـر الحـاج، وهـو يـردد تلبيتـه قـولَ نبـيِّ الله إبراهيـم عليه السلام: ﴿الَّذِى

١. سورة النحل: ٩٦.

خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ*وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ *وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ*وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ* وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾.[1]

فيستشعر الحاج صفة إبراهيم لربّه، واسترساله في تصوير صلته به، إنّه يعيش بكيانه كلّه مع ربّه، يتطلع إليه في ثقة، يتوجه إليه في حبٍّ؛ يصفه كأنّه يراه، يحسّ وقع إنعامه وإفضاله عليه بقلبه ومشاعره وجوارحه... حاله ومآله إليه، فهو الذي يهديه إليه، وكأنّما يحسُّ إبراهيم عليه السلام أنّه عجينة طيّعة في يد الصانع المبدع، يصوغها كيف شاء، على أيّ صورة أراد، إنه الاستسلام المطلق في طمأنينة وراحة وثقة ويقين!... ويحسُّ إبراهيم عليه السلام بكفالة الله له في الصحة والمرض، ويتأدب بأدب النبوّة الرفيع، فلا ينسب مرضه إلى ربّه، وهو يعلم أنّه بمشيئة ربّه يمرض ويصح، إنّما يذكر ربّه في مقام الإنعام والإفضال إذ يطعمه ويسقيه ويشفيه ويميته ويُحييه... ولا يذكره في مقام الابتلاء حين يبتليه! فأقصى ما يطمع فيه أن يغفر له ربّه خطيئته يوم الدين؛ فهو لا يبرئ نفسه، وهو يخشى أن تكون له خطيئة، وهو لا يعتمد على عمله، ولا يرى أنّه يستحق بعمله شيئاً، إلّا أنّه يطمع في فضل ربّه ورحمته، وهذا وحده هو الذي يطمعه في العفو والمغفرة... إنّه الشعور الصحيح بقيمة نعمة الله وهي عظيمة، وقيمة عمل العبد وهو ضئيل ضئيل.[2]

وهو الذي لا غيره؛ يستحق الحمد على ذلك، إذ لم يجعل حياتنا تفسد بوجود شريك له، إله أو آلهة غيره: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾.[3] ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾.[4] لفسدت السموات

١. سورة الشعراء: ٧٨ ٨٢ .

٢. في ظلال القرآن: الآيات بتصرف وإيجاز .

٣. سورة الأنبياء: ٢٢ .

٤. سورة المؤمنون: ٩١ .

والأرض بتعدد الإرادات، حين تتنازعهما، ولو تتنازعنا قوًى وإرادات؛ لاضطربت حياتُنا؛ مصالحُنا، أهدافُنا؛ لأنّها بين إرادتين متنافيتين، بين إلهٍ يريد وإلهٍ لا يريد، أو بين إلهٍ يشاء، وآلهة لا تريد ولا تشاء، هذا يطلب شيئاً وذاك يعارضه، أو يطلب شيئاً آخر منّا، ونحن في حيرة من نُرضي منهما، أنُرضي هذا أو ذاك؟ فله الحمد وله الشكر على أن جعل وجهتنا واحدة، وولاءنا واحداً، وأُفقنا واحداً، ومنهجنا واحداً، نستشعر جلال الله وحده، فنؤمن به وحده، ونستسلم له وحده، ونتوكّل عليه وحده، ونطمئن إلى نصرته ورزقه وحمايته، فهو وحده الكفيل بذلك، حيث خلقنا وجعل لنا توجهاً واحداً؛ قلباً واحداً لا قلبين، ﴿مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾.[1] وإلّا لكنّا ضحية ولاءين متنافيين، وما يستتبع ذلك من قلق واضطراب وتمزّق وشتات...

الصفة الملازمة !

وأيضاً من أكبر النعم على الحاجِّ بالذات هو إتمامه لمناسك الحج، متقناً لها، متقرباً بها إلى الله تعالى، وهو بهذا قد أتمَّ ركناً من الأركان الخمسة (الصلاة والصوم والحج والزكاة...) ومن اللطيف والجميل أن وصف الحج (الحاج فلان) يُطلق عليه حين أدائه وإكماله الحج بمناسكه كلّها، وبهذا يتميّز ركن الحج عن بقية الأركان، فلا يقال لمن أقام الصلاة (المصلي فلان) ولا لمن أتمَّ شهر الصيام (الصائم فلان) ولا لمن زكى (المزكي فلان) إلّا أنّه إذا ما أدّى فريضة الحج قالوا له: (جاء الحاج فلان، وذهب الحاج فلان...) ولعلَّ هذا لأنّه ما صار حاجًّا إلّا وقد صلّى، إلّا وقد صام، إلّا وقد زكّى إلّا وقد...

وليبقى طيلة عمره تلازمه هذه الصفة، وتجعله ذاكراً لنعمة الله عليه أن وفّقه لأداء فريضة الحج التي تتضمّن أداءه لجميع التكاليف العبادية، وهذا لا يعني أنَّ هناك تلازماً بين هذه التكاليف، بمعنى أنّه لا يصح منه تكليف إلا بأداء التكاليف الأخرى،

١. سورة الأحزاب: ٤.

لا، فقد يكون مصليًّا ولا يصوم، أو مزكيًّا ولا يصلّي، أو يصوم ولا يصلّي، نعم أن يلتزم بجميع التكاليف، ويؤدّي جميع العبادات دون أن يتعمد تركها، إلّا بعذر شرعي، فهو أمر جميل ورائع وبه يتكامل المسلم، ولا يكون عاصياً، بل مطيعاً على طول الخط، ويختم حياته ملتزماً منضبطاً بتكاليف وآداب الشرع وحدوده، ولا يتعدّاها.

﴿... وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ...﴾.[1] ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾.[2]

هذا، وإن أقبلت أيام ذي الحجة، ولعلّها أفضل أيام الله تعالى، حيث بهاؤها وضياؤها يُنير الكون، والأفئدة تُملأ حبًّا وحنيناً إليها، فيتعلق المشتاقون لزيارة بيت الله الحرام الذي أعدّته السماء؛ وهيَّأت النفوس بتوجهها نحوه في الواجبات كالصلاة .. وفي المستحبات والأدعية...، فالأفئدة مستعدة منتبهة إليه، لا يغيب عنها ذكره، وكيف يغيب وهو عنوان الديانة الإبراهيمية، وهو منطلق رسالة الإسلام على يدي نبيِّ الله ورسوله محمدﷺ؟ فما أن يقترب موسم الحج، وندخل في شهوره الثلاثة شوال وذي القعدة وذي الحجّة؛ حتى تتجه الأنظار صوب البيت الحرام شوقاً إليه، وأملاً في إتمام الفريضة؛ تتوجه أنظار العباد إليه، وتفيض أعينهم بدموع الحنين والبُشر، وتلهج ألسنتهم بأدعية وعبارات كلّها رجاء أن يتحقق لهم توفيق الطاعة، خاصة من قِبَل ﴿... مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً...﴾.[3] ماديًّا وصحيًّا وقدرة وأماناً...، ورغبةً في زيارة ضريح رسول اللهﷺ وأئمة أهل البيتعليهم السلام والصالحين... منتظرةً يوم القرب من تلك المنازل الطيبة، والمساجد والبيوت، التي يُحبُّ الله تعالى أن يذكر فيها اسمه إيماناً وعبادةً... فتنشغل نفوس المكلفين به

---

١. سورة البقرة: ٢٢٩ .

٢. سورة البقرة: ١٩٧ .

٣. سورة آل عمران: ٩٧ .

تعـالى بعيداً عـن مشـاغل الدنيا.

سـواءً أكانت أمـوالاً، تجارةً، ومنافع ومصالح ومهناً وأنشـطةً أخرى؛ أم نفوسـاً، أهلاً وأولاداً، وأعـزةً وأحبّـةً؛ وقبيلةً وأصدقاء، وهكذا تراه يترك أيّ شيء يشـدّه إلى بلده وبيته، ومـا ألفـه من سـيرته حتى ممّـا أحلّه الـشرع له وأباحـه، فيتجرّد منهـا وهـو في رحلة الحجّ وإحرامـه، ويُخضـع تصرفاته لأحـكام وآداب مـع من مثلـه في الخلقة؛ مع أخيه الإنسـان، فـلا يُفسـد علاقتـه معه، بشـيء من جدال أو تشـاجر أو فسـوق... فيفسـد حجّـه، ومع الأقـرب إليـه زوجتـه، فيُعطـل أو يؤخـر علاقتـه المحللة بهـا ﴿فَـلاَ رَفَثَ﴾. بـل حتى مع المخلوقـات الأخـرى من نبـاتٍ، فلا يقـترب الحاجُ من شـجرة يقطع منها غصنـاً أو زهرةً أو ثمـرةً، ومـن حيـوان فليس له أن يؤذيـه أو ينفّره أو يُـدلّ عليه، فضلاً عـن اصطياده، أو يُصيـب طيراً بـشيء أو حشرةً بـأذًى...

عـن أبي عبد الله عليه السلام قال: «لا تسـتحلنّ شـيئاً من الصيد وأنت حـرام، ولا وأنت حلال في الحـرم، ولا تدلـنّ عليـ مُحـلاً ولا محرمـاً فيصطاده، ولا تـشر إليه فيسـتحل من أجلك، ...». وهنـاك غيرها.[1]

وحتـى الجـماد؛ فترى الحـاجّ يطوف حول أحجـار، فقد روي عـن أبي جعفر الباقر عليه السلام أنّـه قـال: «نزلت ثلاثـة أحجار مـن الجنة؛ مقـام إبراهيم، وحجـر بني إسرائيـل، والحجر الأسـود اسـتودعه الله إبراهيم عليه السلام حجراً أبيض، وكان أشـدّ بياضاً من القراطيس، فأسود من خطايا بنـي آدم».[2]

﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾.[3]

والبيـت العتيـق هـو الكعبـة، وقد بُنيـت بأحجار، يبـدأ الحاجّ أشـواط طوافه السـبعة

---

١. انظر كتاب وسائل الشيعة، للحر العاملي، أبواب تروك الإحرام ١٢ : ٤١٥ .

٢. مجمع البيان في تفسير القرآن، للشيخ الطبرسي، الآية: ١٢٥ البقرة .

٣. سورة الحجّ: ٢٩ .

بهـا مـن حجـر وينتهـي إليه؛ هـو الحجر الأسـود، حجر مبـارك؛ ينـوي طوافه منه، يُشـير إليـه بالسـلام، يُحاذيـه؛ فيرفـع يديـه بالدعاء بطلـب البركـة والمغفـرة، ترافقه في أشـواطه أدعيـةٌ تتوفـر على توسـل ومناجاة، وحجـرٌ يتزاحم الحجيج عنـده؛ ليُقبّلـوه، دون أن يرى الحـاجّ أنّـه بعملـه هـذا قد تنازل عـن كبريائه، بـل يرى ذلـك عـزّةً وامتثالاً وطاعـةً وأملاً في الثواب...

فيـما هنـاك حجر بـل أحجار يُرميهـا بأحجـار أُخر؛ بحصيـات صغيرة وهـي: جمرات وجمـار؛ جمـع الجمـرة؛ (الجـمار): هـي الأحجـار الصغـار، ومنـه سـمِّيت جمـار الحـج للحـصى التـى يُرمَـى بهـا، وأمّا موضـع الجـمار بمنىً فسُـمِّيَ جمـرة؛ لأنّهـا تُرمـى بالجمار، وقيـل: لأنّهـا مجمـع الحـصى التـي يُرمـى بهـا، مـن الجمـرة وهـي اجتـماع القبيلـة على من نَاوَأها، وقيل: سُـمِّيت بـه مـن قولهـم: أجمـر: إذا أسرع.[1]

يجمعهـا مـن المزدلفة، يبحـث عنها هنا وهنـاك بين رمال وأعشـاب بل وأوسـاخ بكلّ اندفـاع تـاركاً كبريـاءه وشـموخه، مبـدلاً ذلـك بتواضـع لعلّـه ينفعه في سـيرته بعـد هذه الرحلـة التـي تعبدنـا اللهُ تعالى بهـا بأفعال وأحجار؛ لحكم هـو أعلم بها منّـا... ممّا يدلُّ على أنَّ العظمـة والعـزة والكرامـة للإنسـان المسـلم تتحقـق حينما يقـع اختياره موافقـاً لمنهجه وشريعتـه تعـالى، منسـجماً مع مـا يريده منـه ومع ما يتعبـده به، ويُربيـه عليه، ويُعـدّه له... فبالانقيـاد لأحكامـه وبالاسـتجابة لتكاليفه وحده دون غـيره، تتحقق الطاعـة منه لمولاه، ويتحقـق القضـاء على طغيـان الإنسـان وغطرسـته وكبريائه... ليبقـى منطـوق الآية: ﴿يَا أَيُّهَـا النَّـاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَـرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُـعُوباً وَقَبَآئِـلَ لِتَعَارَفُواْ إِنَّ أَكْرَمَكُـمْ عَنـدَ اللَّهِ أَتْقَاكُـمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.[2]

يتجـلّى مصـداق هـذه الآيـة المباركة بشـكل واضح في موسـم الحـجِّ، فـما تتضمّنه من

١. النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير، مادة (جمر) ١ : ٢٩٢ .

٢. سورة الحجرات: ١٣ .

مفهـوم رائـع (التعـارف) يُعدُّ هـو العامل الأسـاس في العلاقـات بين العبـاد الذين ينبغي أن يعيشـوا في عـالم، وإن تعـددت فيـه أجناسـهم، واختلفـت فيـه ألوانهـم، وتفاوتت فيه قدراتهـم وثرواتهـم، يبقى ميـزان التفاضل بينهم هو ميـزان التقوى لا غير، ميـزان ارتضاه الله تعـالى لنـا خـال مـن الشـوائب التـي يوجدهـا الهـوى، وينتـج عنهـا التعـالي والقلـق والاضطـراب والتشـتت... وليدلّنـا عـلى أنَّ أيّ اختـلاف ينبغـي بـل يجـب أن لا يُفسـد للـودِّ قضيـة، خاصةً فيما يقع بين البشـر مـن اختـلاف في آرائهم وأفهامهـم وتوجهاتهم، وتعـدد قراآتهـم لما حولهم مـن القضايا والأمـور، ويعدُّ بابـاً لتكاملهم العقـلي، والفكري، والمعـرفي، ولولا هذا لمـا تطورت المعرفة البشريـة وازدادت تكاملاً ورفعـةً... فالحاج حين يعيـش هذه الأجـواء الاجتماعيـة الروحية، ويرى الاختـلاف حاصلاً من حوله في أشـياء كثـيرة، وأنَّ كلَّ واحـد منّـا لا يشـبه الآخر كما أنَّ الآخر لا يشـبهه؛ وكأنَّ لـكلِّ شيء ضدًّا، وأنَّ المسـتبد الـذي بداخلنـا يجـب أن نكبحـه، حتى لا يسـتحوذ علينـا، فالاسـتبداد شيءٌ قبيـح، علينـا أن نبعده عن أنفسـنا وأخلاقنا، وبالتـالي تنمو في النفس حالـة ودٍّ حقيقية لمن حولنـا، وإلّا أدمنـا وجـوده حينما نجعل سـيرتنا مـع الناس قائمـةً عليه...

ولعـلَّ مـن حكمة مناسـك الحج هـذه أن يعرف الإنسـان ويـدرك أنّ وجـوده محدود، وأنَّ مـا يملكـه مـن جمـال وقـدرة وغنًـى، لا يخوّلـه التعالي عـلى الآخـر أو اسـتصغاره أو احتقـاره... وأنَّ سـيادته عـلى مـا في الكـون، وأنّ تسـخيره لـكلّ مـا حوله، لم يكـن بذاته، وإنّـما هـو بتفضيـل من الله تعـالى، فـإن شـاء كان وإن لم يشـأ لم يكن...

فتلبيـة نـداء الحـج وتنفيذ مـا فيه من مناسـك هي طاعـة لله تعـالى وعبودية لـه، وأولى هـذه العبوديـة وتلـك الطاعـة أن يتجـرّد الحـاج مـن كـبره؛ ويخلـع كلّ ما يدعـو للتفاخر والتكاثـر، مكتفيـاً بثـوب هو الكفـن بعينه، وأنّـه يرتدي هنا كفنه بنفسـه وإرادتـه، منتظراً كفنـاً آخـر هـو حصيلته من مشـوار الدنيـا ومنافعهـا وتقاتله عليهـا، قد يُلقـوه عليه؛ وقد يُحـرم منه...

بركات كثيرة :

فلقد بُني هذا البيت؛ ليُعبد فيه الله تعالى وحده كما أحبَّ وارتضى، ويكون أيضاً منزل ضيافة، بقعةً مباركةً، تملأ بركاتها الأجواء، يملأ خيرها وعطاؤها مَن وما حولها، ومن تلك البركات الإيمان وثباته في النفوس، بركة استشعار خشية الله تعالى، بركة مضاعفة الحسنات وأجورها، ففيه الحسنة بمئة ألف حسنة، وفي غيره الحسنة بعشر أمثالها، ومضاعفة ثواب العبادات فيه؛ حتى ورد أنَّ ثواب الصلاة فيه بمئة ألف صلاة...

بركة الصبر والتحمّل، وقتل حالة الملل والتكاسل... بركة العمل الصالح، بركة الإنفاق وقتل صفة البخل والحرص... بركة التجرد من الدنيا وآثارها..، بركة احترام الآخر، بركة التواضع واتساع الصدور للغير؛ ذلك القادم من كلّ فجٍّ عميق؛ من بلاد شتّى، ومن بقاع بعيدة.. وباتساع القلوب والصدور؛ تتسع الأمكنة لاستقبالهم بأحسنه، واستضافتهم بأحسنها..، وقتل صفة الكبرياء والغرور والطغيان والتعسف..، وإماتة صفات التسقيط والسخرية والاستهانة بالآخرين..، بعيداً عن أيّ تفاوت في منازلهم، وبعيداً عن أيّ اختلاف بينهم بالمال والجاه والسلطة..، وهذه وغيرها هي مقدمات ﴿لِتَعَارَفُواْ﴾ الذي هو أسمى بركات الحج وأجمل منافعه!

ومن بركات هذا البيت وحجّه أنَّ الحاج يكون أكثر ضبطاً لنفسه وسلوكه من اقتراف المعاصي، وفي مأمن من ارتكاب الذنوب والآثام، فإنّها تُعدُّ فرصة كبيرة لعدم فعل الذنوب، وبالتالي فأيّ وقت يكون خالياً من تعدّي حدود الله فهو بركة... كما أنَّ الله تعالى يُفيض على الإنسان وهو يعيش أوقات هذه الأمكنة ومناسكها القدرة على أن لا يفعل إلّا ما فيه الطاعة، وما فيه الخير والإحسان؛ ويُضاعف له أجر ذلك بلا عدٍّ ولا حدٍّ...

وتبدأ هذه الزيارة بتمهيد عبر الإحرام من الميقات، فلبس الإحرام له معنى التجرّد

مـن زخـارف الحياة، ومناسـك الحج من طواف وسـعي، لها في كلّ منسـك معانيـه الدينية والإنسـانية، والوقـوف بعرفـات متجرّديـن متسـاوين عـلى اختـلاف عروقهـم ولغاتهـم وألوانهـم بلباس واحـد يغمره البيـاض الناصع كالحقيقـة الواضحة...

ويشـعر كلّ واحـد مـن الحجيـج، وهـو ضمـن جمـوع هائلـة تحيط بـه، يؤدي منسـك حجّـه المبـارك، فـيرى الجميـع بألوانهم وأشـكالهم، وقد نزعـوا عناوينهم، فلا سـلطة ولا ثـراء ولا وجاهـة ولا قـوة... الـكلُّ في لباس بسـيط واحـد، يقفون بكلّ تواضـع بين يدي إلـه لا ينظـر إلّا إلى قلوبهـم؛ وقلوبهـم فقط، هـي المعيار الحقيقـي لأيّ تفـاوت بينهم، فلا صورهـم تجـدي، ولا هيئآتهـم تنفـع ولا أموالهـم ولا مناصبهـم..، فـترى الجميـع بغض النظـر عـن مسـتوياتهم العلميـة والفكرية والماليـة والاجتماعيـة و... في موقـف واحد، في خضوعهم وفي اسـتكانتهم وفي توسـلهم واسـتغفارهم، لا يتميز فرد عن فـرد، ولا جماعة عـن جماعـة، القـوي بجانب الضعيـف، في صلاتـه وفي طوافه وفي سـعيه وفي...

مـا أعظـم فريضـة الحـج التي ضمّـت الجميع في مشـهد، وإن صغـر، من مشـاهد يوم القيامـة؛ يـوم الجمـع الأكـبر؛ يتذكـرون فيـه اجتماعهـم قياماً بـين يـدي بارئهـم، رافعين أيديهـم يتضرعـون ويدعـون: ﴿رَبَّنَـا لاَ تُـزِغْ قُلُوبَنَـا بَعْـدَ إِذْ هَدَيْتَنَـا وَهَـبْ لَنَـا مِن لَّدُنْـكَ رَحْمَـةً إِنَّـكَ أَنْتَ الْوَهَّـابُ * رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ النَّـاسِ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيـهِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُخْلِـفُ الْمِيعَادَ﴾.[1]

وليتعلّمـوا كيـف يتواضع بعضهم لبعـض، ويتعـاون بعضهم مع بعـض... وليعرفوا أنَّ حياتهم لا تسـتقيم إلّا بالتعـارف والتواصل وعـدم التعالي...

نعـم، لنـا أن نختار ما يناسـبنا بـين أهلينا وأحبّائنـا، وما يتوافـق وأقدارنـا، وما يتلاءم مـع أدوارنـا في معيشـتنا وسـيرتنا، ولكـنّ الله تعـالى أراد منّـا هنـا ولحكمتـه البالغـة أن لا نتميـز في عرصـات هذه الفريضـة في ملابسـنا وعناويننا ومناصبنـا، أرادنـا أن نقف أمامه

١. سورة آل عمران: ٩ .

كما هو يريد، بزيّ واحد غير مخيط، وبه ينتهي أيّ عنوان للتميّز والتعالي، غير ناظرين لمراتبنا الدنيوية، ليكون هذا الموقف مذكراً لنا ذلك الموقف الرهيب من مواقف يوم القيامة ومشاهدها: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾.[1]

وكذا علينا أن نكون أكثر خشوعاً وتذللاً في هذه المواقف المشرفة، وذلك حين نتذكر عتاب الله لنا: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُواْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلاَ يَكُونُواْ كَالَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾.[2]

يقول ابن عاشور: قوله: ﴿أَلَمْ يَأْنِ﴾، كقولهم: أما آن لك أن تفعل... وفي خبر إسلام أبي ذرٍّ من أنَّ علي بـ أبي طالب عليه السلام وجده في المسجد الحرام، وأراد أن يُضيفه، وقال له: «أما آن للرجل أن يعرف منزله»؟ يريد أن يعرف منزلي الذي هو كمنزله. وهذا تلطّف في عرض الاستضافة! ولعلَّ مراد هذا الخشوع هو: التواضع والاستكانة والتذلل. والطمأنينة والسكون. وهي معان تستلزم لين القلوب وهو ما يتنافى مع قسوتها حين تقسوا، وهذا الخشوع بمعانيه المذكورة يتضمّن العبودية لله تعالى والطاعة له... فلابدَّ للمؤمن حقًا إذا ما عشق تكاليف السماء وهو يجب أن يكون هكذا عاشقاً لها أن يؤديها بشوق وتذلل وسكون، وبنشاط لا كسل ينتابه في أدائها، بل في إقامتها بلا تأخير... ويقدم بعمله هذا المتقن تكليفاً رائعاً وجميلاً، يُشجّع الآخرين عليه، وإلّا حرم تلك التكاليف من جمالها وجلالها ولذّتها، وحرم الكون من جلاله ورونقه، وكلّها تستقي من ربٍّ جميل جليل حكيم غفور رحيم... فجمال الكون يتجلّى بخلق الله الموحدين المطيعين العابدين...

---

١. سورة الحج: ٢.

٢. سورة الحديد: ١٦.

وهنا في بيت الله الحرام:

يتجلّى الخشوع بأعلى درجاته، خاصة عند من يؤدي هذه الحج لأول مرة، فما أن يرد الحاج بيت الله الحرام، ويشاهد الكعبة حتى تذرف عيناه الدموع؛ فرحاً وسروراً؛ وأملاً في أن يُغفر ما تقدم من ذنوبه، وطمعاً في أن يبدأ سيرةً أخرى خاليةً ممّا انتاب حياته من معاص وآثام... فالبكاء قد يكون عيباً، وأن من يلوذ به هو الضعيف الذي لا طاقة له بتحمّل أذًى أو حزناً، لكنّه هنا له توجه خاص؛ ممتزج بفرحة التخلص ممّا علق بالنفس من آثام وتقصير وتجاوز للحدود الشرعية، وندماً على ما اقترفه من سوء، ممّا يجعل له روحانية، خاصةً إذا ما كان من قلوب مخلصة، من الصالحين والعارفين، من المصلّين والطائفين، ويُعدُّ مظهراً من مظاهر الخيفة والتضرع لله تعالى، وتعبيراً عن العبودية المطلقة له تعالى، كما أنّه يُعدُّ صورةً لمشهد من مشاهد يوم القيامة الأعظم...

فينشغل الحاج، وقد تعلقت بأجواء هذه البقاع كلُّ مشاعره، عمّا حوله بضبط مناسكه، بطوافه وسعيه، بعباداته وأدعيته، فهي المشاعر والأحاسيس الصادقة التي تكون أكثر إثارة وإخلاصاً كلّما كان العبد أكثر اقتراباً من الله تعالى وإحساساً...

وفي هذه المنازل بالذات التي تعبَّد بها اللهُ تعالى هذه الجموع المتوافدة من شتى بقاع الأرض، فالأمر ينبثق من القوة؛ قوة اليقين الثابتة التي تأخذ بيد الحاج المسلم؛ لتبعده عن كلّ ما قد يشوب إيمانه واعتقاده من أخطاء وانحرافات... كما أنّها قوة التوجه بعيداً عن التكبر والتعالي والاستعلاء وهي من السيئات، وطلباً لمغفرة الله ورضوانه بخشوع وتذلل، يطوف بالبيت متضرعاً إلى بارئه تعالى أن يغفر له سيئاته، أو يستبدلها حسنات، وأن يسدّده في سيرته وفي امتثاله لأحكام الله سبحانه...

وسبحان الله ما أن ينتهي الحاج من بكائه وتضرعه، إلّا ويشعر بالطمأنينة، وسكون البال، وكأن الدموع التي انطلقت من الحجيج بدرجات متفاوتة، وسكبت من عيونهم

على قدر إسرافهم على أنفسهم، وعلى قدر تقصيرهم في حقِّ الله تعالى، قد غسلت قلوبهم، وطهرت نفوسهم، وجعلتهم أعظم قرباً من المولى، وأكثر صدقاً، حتى إنّهم حين يرون المناسك؛ وقد اقتربت نهايتها إلّا ويحزنهم ألم فراقها، ويشدّهم الأمل في العودة إليها في مناسباتها المقبلة...

نعم، حينما يأتي الحاج لمرات أخرى سيكون أقلَّ بكاءً من المرّة الأولى، وأقلَّ حرقةً وغزارة..، لا أقول بسبب الاعتياد، بل لعلَّ الإنسان الحاج صار أكثر طهراً في مسيرته وبالتالي أكثر طاعة وعبادة، وأعظم صدقاً في امتثاله للدين الحنيف، وأقلَّ معصيةً ومخالفة... وأفضل اعتدالاً في سيرته...

يأتي الحاج إلى هذه المنازل، يعيش أجواءها، يستلذ بروحانيتها، لا يلتفت إلى ما يشغله، فيبقى في شُغل لما هو فيه، بعد أن تراجعت رغباته، وانخفضت نسبة نوازعه، وتلاشت اهتماماته، لا يدري بمن حوله، ومن حوله هو الآخر مشغول بعبادته، فكلٌّ مشغول بنفسه، رجالاً ونساءً...

فالكعبة المباركة أمامك من كلِّ الجهات، متوجّه إليها، تنظر إليها، تناجي ربَّك كما تحبّ، تصلّي وتطوف وتسعى... تعيش بركاتها وأمانها...

نِعَمٌ أخرى:

إنَّ من النعم نعمة الأمان التي تتوفر في هذا المكان؛ لتكون أنموذجاً، لأن تطبق في أماكن أخرى قربت أو بعدت عن المسجد الحرام، والأمن والأمان هو كما يظهر أمر تكليفي كالعبادات من صلاة وغيرها على الفرد وعلى الجماعة وعلى الأمّة القيام به، وإلّا فهم في معصية الأمر التكليفي، فمن أطاع وفّر الأمان للآخرين، ودعا إليه، ونهى عن مخالفته، وهذا يُعدُّ ضرورة لتهيئة الأرضية الآمنة للقيام بالمناسك التي بدونها يتعثّر أداؤها أو يتأخّر إن لم نقل: إنّه الصدود بعينه عن المسجد الحرام وفريضة الحج... ومن

مصاديـق الأمـن واحـترام البيت: ترك الفسـوق والجـدال: ﴿... وَلا فُسُـوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ...﴾.[1]

الجدال: المناقشة والمشادّة حتى يغضب الرجل صاحبه.

والفسـوق: إتيـان المعـاصي كـبرت أم صغـرت... والنهي عنهـا ينتهي إلى تـرك كل ما ينـافي حالة التحرج والتجرّد لله في هـذه الفترة، والارتفاع على دواعـي الأرض، والرياضة الروحيـة عـلى التعلـق بـالله دون سـواه، والتـأدب الواجـب في بيتـه الحـرام لمن قصـد إليه متجـرّداً حتـى من مخيـط الثياب! وبعـد النهي عن فعـل القبيح يحبب إليهـم فعل الجميل: ﴿...وَمَـا تَفْعَلُـواْ مِـنْ خَـيْرٍ يَعْلَمْـهُ اللَّهُ...﴾. ويكفـي في حـسّ المؤمـن أن يتذكـر أنَّ الله يعلـم مـا يفعلـه من خـير ويطّلع عليـه، ليكون هـذا حافـزاً على فعـل الخير؛ لـيراه الله منه ويعلمـه... وهـذا وحده جـزاء... قبـل الجزاء. ثـمّ يدعو إلى التـزود في رحلـة الحج... زاد الجسـد وزاد الـروح... فقـد ورد أنَّ جماعـة مـ أهل اليمن كانوا يخرجون مـن ديارهم للحـج ليـس معهـم زاد، يقولون: نحـج بيـت الله ولا يطعمنا!

وهـذا القـول فوق مخالفتـه لطبيعة الإسـلام التي تأمر باتخـاذ العدة الواقعيـة في الوقت الـذي يتوجّـه فيـه القلـب إلى الله، ويعتمـد عليـه كلّ الاعتـماد يحمـل كذلـك رائحـة عدم التحـرّج في جانـب الحديـث عن الله، ورائحة الامتنـان على الله بأنّهم يحجّـون بيته فعليه أن يطعمهـم! ومـن ثَمّ جـاء التوجيه إلى الـزاد بنوعيه، مع الإيحـاء بالتقوى في تعبـير عام دائم الإيحـاء: ﴿وَتَـزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الـزَّادِ التَّقْـوَى وَاتَّقُونِ يـا أُوْلِي الأَلْبَابِ﴾.

والتقـوى زاد القلـوب والأرواح، منـه تقتـات، وبـه تتقـوّى وتـرف وتـشرق، وعليـه تسـتند في الوصـول والنجـاة... وأولـو الألباب هـم أول من يـدرك التوجيـه إلى التقوى، وخير مـن ينتفـع بهذا الـزاد.[2]

---

١. سورة البقرة: ١٩٧.

٢. في ظلال القرآن، لسيد قطب: الآية.

إبعاد الجدال المنهي عنه وما يتبعه من التشاجر والتنازع... وأيّ قول من سبّ وشتم وكذب... وأن لا يباشر العبث في البيت الحرام بأيّ شكل كان، وأن يتجنّب أيّ فعل يؤدّي إلى الاختلاف فالشقاق والاضطراب، فتقع الفوضى أو الفتن بين الناس، وكلّها أمور بلا شك تصدُّ الناس عن بيت الله، وتخلُّ بأجواء هذا البيت ومناسكه، وتبعد عن ذكره سبحانه وتعالى، ولهذا كانت عقوبة من يوجد مثل هذه الأمور أو يدعو إليها، عذاب أليم، كما في الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِى جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.[1]

ومن النعم، أيضاً نعمة الإثابة: الرجوع إليه تعالى، فتواجد المكلف في هذا البقاع دليل إثابته وعودته إليه تعالى من دنيا فارهة لاهية شاغلة أشكالها وأحوالها، بأن يعيش في دورة تدريبية على أحكام الحج وأخلاقياته وآدابه، فلعلّه يألفها جيداً، فيأخذ بتطبيقها على مجالات سيرته العبادية والعملية، فالطاعة إذا ألفها واعتادها المسلم؛ استمر عليها، وصار يستوحش من عدمها، وإن عاد من الحج؛ يلتزم بسيرة حسنة طيبة، وإن خوفاً من أن يراه الآخرون على مخالفة أو في معصية، فيعيبوا ذلك فيه، فهو أيضاً له أثر في تعوده الاستقامة...

نعمة الصبر:

هذا ما يجده الحاج فرداً أو جماعة... في السعي بين الصفا والمروة، بين جبلين في أرض خلت من أسباب الحياة من إنمائها وإدامتها وتطورها، ووصفت السماء تلك البقعة بأعظم من ذلك وأدقّ فشكّلا أمراً خطيراً، وهو ما عانته امرأة صالحة، تركها زوجُها ورضيعها حيث لا من ماء يشربونه ولا طعام يأكلونه، ولا ظلٍّ يستظلون به،

١. سورة الحج: ٢٥.

ولا أمـان يلجـأون إليـه، ولا مـلاذ يحتمـون بـه... ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْـكَنتُ مِـن ذُرِّيَّـتِي بِوَادٍ غَـيْرِ ذِى زَرْعٍ عِنـدَ بَيْتِكَ الْمُحَـرَّمِ...﴾.

وبعـد أن عرفـت أنّ مـا يفعلـه زوجهـا لا كرهـاً لهـم ولا زهداً بهـم، بل هو أمـر الله لا غـير، فكانت تـردد: إذن لـن يُضيعنا!

فهنـا تعلّمنـا هـذه الصالحـة التوكل عـلى الله والرضـا بما قـدر والصبر عليـه، فالتوكل والصـبر صفتـان ممدوحتـان، لم تكتـف بهـما وتبقـى تنتظـر، وإنّـما ذهبـت وهمـا يرافقانها، تسـتعين بالأسـباب الطبيعيـة، وتبحـث لوليدها عن المـاء، فترويه من عطـش، وتنقذه من مـوت محقّـق، نزلـت على أمر السـماء وحكمها، فلم تعطّـل جهدها بل راحت تسـتخدمه، فترتقـي ربـوةً لتنـزل منهـا فترتقـي أخرى، تقـف عـلى المـروة، فتنظر بعيـداً هنـاك وقريباً هنـا، ثـمّ تهبط فتسـير وتهـرول، فلعلّها تجد في مسـيرتها مـا يُنقـذ وليدهـا، وإذا بجبل آخر إنّـه الصفـا، فأسرعـت إليـه فلعلّهـا تجد عليـه مـاءً أو ما يرشـدها إليـه، ولا تقـف طويلاً عليـه، فـلا حياة تجدها عنـده ولا طيراً ولا شـجرةً ولا فيئاً ولا حتى قطرات مـاء، فتغادره لغـيره، ومـا إن نفـد جهدهـا وقـد وصلـت متعبةً لتجلـس بجانـب رضيعها، حتـى منّت عليهـا السـماء وتفضّلـت بـأنَّ المـاء ليـس هناك حيـث كنـتِ، بل هو هـذا بجـوار طفلك تحـت قدمـه التـي مـا إن حرّكها قليـلاً وبرفق وهـدوء حتى نبع مـن تحتها، لتنبـع منه حياة هـذا الـوادي المبـارك، فكان رحمة لـه وللناس جميعـاً، ولم يكـن ينتابها القنـوط واليأس من أنّ الله تعـالى لم يجعـل الفرج عـلى يديها.

وإنّـما كان مـن قبـل طفل رضيـع ضعيف لا حـول له ولا قـوة تعينه على الجـري بعيداً في الـوادي وبـين الجبلـين كـما فعلت أمُّـه، وإنّـه ليس لـ إلّا القـدرة على الحركـة في مكانه الـذي هـو ماكـث فيـه ومن هنـا علينـا أن نلتفـت إلى أنَّ الفـرج قد يـأ ممن لا يُحسـب له حسـاب، ومـن جهـة لا تكون عـلى البال فاندفعـت قدمه وبـدون قصد منـه، وهي حركة عاديـة، وإذا بالمـاء يتدفّـق بـين يديـه وحولـه، فـالله تعـالى لا يتركهـا وابنهـا هكـذا بلا أن يمدّهمـا بعطائـه؛ ليخلـد هذا المـكان وتتـمَّ فيه رسـالاته، وتتحقّق فيـه إراداتـه وتشريعاته

وأحكامه وقيمه... ونحن نؤدّي ما أدّته سبعة أشواط بين هاتين الربوتين أو الجبلين...

وهكذا هي تعطي الأجيال درساً بليغاً يُفهمنا معنى التوكل ومعنى الصبر معنى المثابرة والجد وعدم القنوط أو التكاسل... وأنَّ علينا أن لا يصيبنا اليأس أبدًا؛ لأنَّ لنا ركناً شديداً؛ إنّه الحيُّ الذي لا يموت، القويُّ الذي لا يضعف... نركن إليه و نلجأ إليه، فهو ربٌّ لا يتركنا، يده ممدودة لخلقه.. فما علينا إلّا أن نستقبل حياتنا بلا قنوط، بل بقوة وأمل...

طيفان :

وهنا وبعد أن يذكر سيد قطب أنَّ موسم الحجّ هو موسم عبادة تصفو فيه الأرواح، وهي تستشعر قربها من الله في بيته الحرام، وهي ترف حول هذا البيت، وتستروح الذكريات التي تحوم عليه وترف كالأطياف من قريب ومن بعيد. يُشير إلى طيفي إبراهيم وهاجر: طيف إبراهيم الخليل عليه السلام، وهو يودع البيت فلذة كبده إسماعيل وأمّه، ويتوجّه بقلبه الخافق الواجف إلى ربّه: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ...﴾.

وطيف هاجر، وهي تستروح الماء لنفسها ولطفلها الرضيع في تلك الحرة المتلهبة حول البيت، وهي تهرول بين الصفا والمروة وقد نهكها العطش، وهدّها الجهد، وأضناها الإشفاق على الطفل، ثمّ ترجع في الجولة السابعة وقد حطّمها اليأس؛ لتجد النبع يتدفق بين يدي الرضيع الوضيء، وإذا هي زمزم، ينبوع الرحمة في صحراء اليأس والجدب![1]

عبادات متعددة :

وذاك التقييد لأداء مناسك الحج، لا يخلو من انضباط وتقيّد بوقته وأمكنته

١. في ظلال القرآن، سيد قطب، سورة الحجّ: ٢٨ .

وشروطه، وبالتالي فالانضباط والتقيّد لا بدَّ لهما من مشقةٍ وتعب، وسفر، وصرف مال، وبُعدٍ عن أهل وأحبةٍ وتجارةٍ... ولعلَّه إن صحَّ الوصف أنّه، أي الحجّ، قد جمع في أدائه عبادات متعددة: عبادة النفس وما تشتهيه، وعبادة البدن، وعبادة الجوارح، وعبادة المال، وعبادة فراق الأعزّة... وكأنَّ هذه، وكلّ ما يقع مقدمات للحج، يؤدي عبادة، أي في دائرة عباديّة لله سبحانه وتعالى، وبالتالي فهي تُعدُّ عبادات يؤجر عليها الحاج، و يتضاعف أجره بها ويزداد ثوابه، كلّما ازداد تعباً وصبراً في تحصيلها، فالحجُّ عبادة جامعة لكلّ هذه...

إنَّ للحجِّ حقًّا :

ولعلّ من أجل ذلك كتبت الشريعة أنَّ للحجِّ حقًّا، كما ذُكر عن الإمام السجاد عليه السلام: «حقّ الحجّ أن تعلم أنّه وفادة إلى ربّك، وفرار إليه من ذنوبك، وفيه قبول توبتك، وقضاء الفرض الذي أوجبه الله تعالى عليك».

وأنَّ الحجَّ المبرور أفضل الجهاد: فعن عائشة قَالَتْ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهَّ، نَرى الجِهَادَ أَفضَلَ العمل، أفَلا نُجاهِدُ؟

فَقَالَ: «لكِنْ أَفضَلُ الجِهَادِ: حَجٌّ مبرُورٌ».

«العُمْرَة إِلَى العُمْرِة كَفَّارةٌ لِمَا بيْنهُما، والحجُّ المَبرُورُ لَيس لهُ جزَاءٌ إلاَّ الجَنَّة».

«وأنَّ للحجيج والمعتمرين غفران الذنوب، وأنَّ ثوابهم هو الجنة».

«من حجَّ هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمّه».

«تابعوا بين الحج والعمرة فإنّهما ينفيان الفقر والذنوب كما ينفي الكير خبث الحديد والذهب والفضة وليس للحجة المبرورة ثواب دون الجنة». كما أنَّ: «من أماط أذًى عن طريق مكة، كتب الله له حسنة، ومن كتب له حسنة، لم يُعذّبه الله».

وأنَّ من حفظ متاع الحجيج أعظم أجراً: فعن الخثعمي؛ قلتُ لأبي عبد الله عليه السلام:

«إنّـا إذا قدمنـا مكة، ذهـب أصحابي يطوفـون، ويتركـوني أحفظ متاعهم؟ قـال عليه السلام: أنت أعظـم أجراً»!

وما أشبه ذلك من الأخبار التي تطول بذكرها المقالة.

وبالتـالي فهنـاك أجـر عظيـم، وقبـول أعظـم بإتمـام الحـجّ وفـق مـا تريـده الشريعـة، وإكمالـه بشروطـه وتوجهاتـه، أن جُعـل إكمالـه، ورجـوع الحـاج من هـذه الرحلـة؛ رحلة الذنـب المغفـور، ورحلة العمـل الصالح إلى بلده وأهلـه وعمله غنيمةً كـبرى تتمثل في أن يكـون عليـه كيـوم ولدتـه أُمُّه، يُعيـده طاهـراً من الذنـوب، بريئاً ممّـا اقترفه مـن مخالفات، يمتلـك مـن الوقايـة ما تجعله مستقبلاً سـيرةً جديـدةً صالحـة: «من حـجّ فلـم يرفث ولم يفسـق رجـع مـن ذنوبه كيـوم ولدتـه أمّه».

وكـم هـو رائـع وجميـل في حياتنـا أن نوفق لمـا يُـرضي الله تعالى، فـلا يرانا حيـث نهانا، ولا يفقدنـا حيـث أمرنـا، وهـو عـين المـروة، فقد سـئل الإمـام الرضـا عليه السلام: «فيـم المروة؟ فقـال: ألّا يـراك الله حيـث نهـاك، ولا يفقـدك حيـث أمرك»![1]

***

١. انظـر صحيـح البخـاري وصحيـح مسـلم، فضائـل الحـج ٤ : ١٢٧٤، ٥: ١٢٧٥، ٦: ١٢٧٦، ٧ : ١٢٧٧. بـاب : ٤٧ مـن أبـواب مقدمـات الطـواف، حديـث : ١ ؛ وسـائل الشـيعة، بـاب : ١١ مـن أبـواب الطـواف، حديـث : ١ ؛ جواهـر البحـار: ٣٤٩.